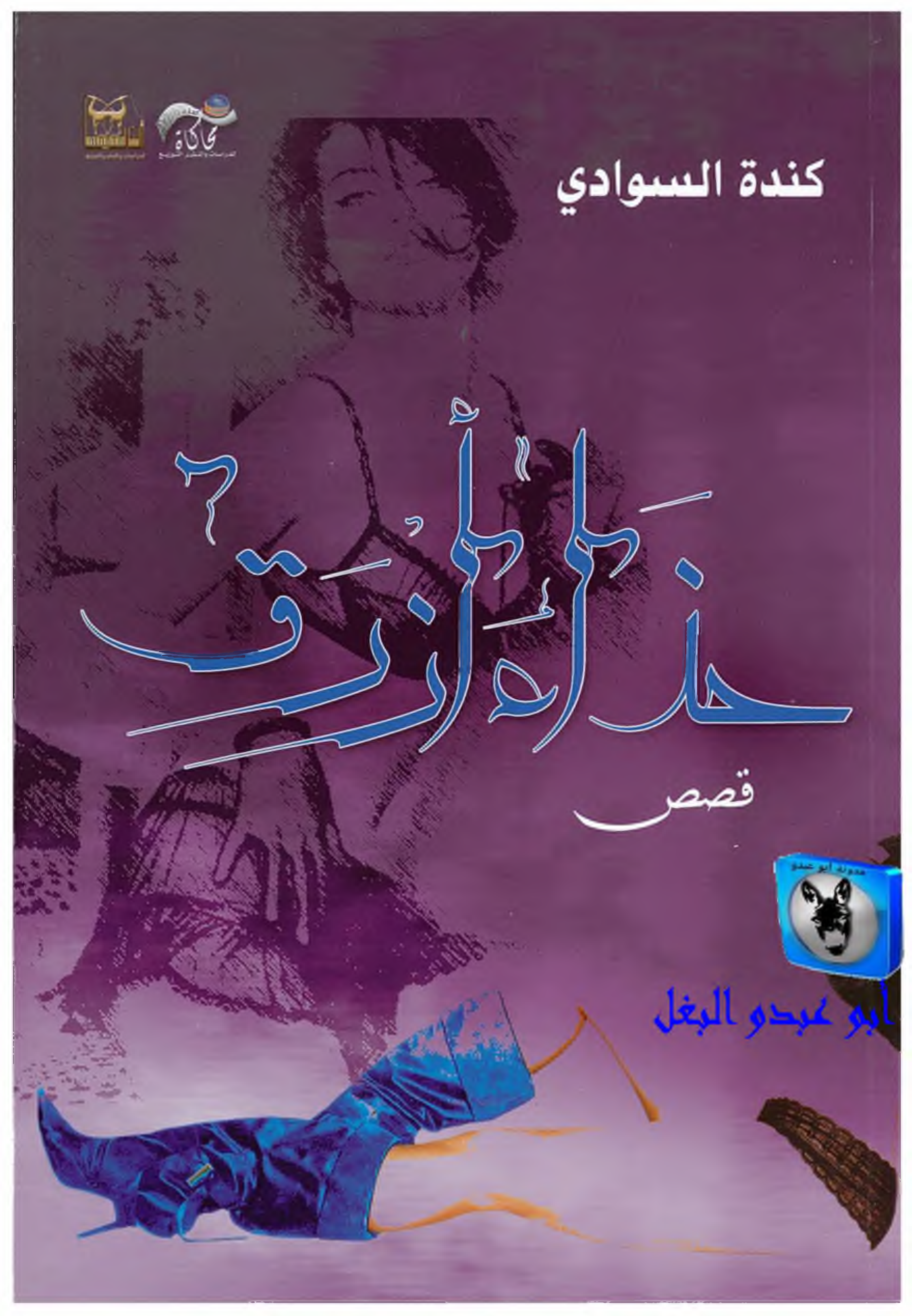

كندة السوادي
حذاء أزرق
قصص
أبو عبدو البغل

كندة السّوادي



قصص





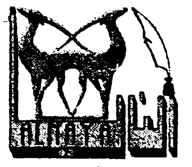
2011

- حذاء أزرق - قصص.
- كندة السوادي

- طبعة أولى 2011
- عدد النسخ 1000 نسخة
- عدد الصفحات 112

- الإخراج الفني والغلاف: مناف نفاع
- ISBN: 978 9933 464 345

- الناشر:



سورية - دمشق ص. ب : 2322
هاتف: 56399561 11 +963
فاكس: 56399560 11 +963
جوال: 693 624 944 +963
البريد الإلكتروني : safi_nayaa@hotmail.com
muhakat2009@hotmail.com



الإشراف العام

صافي علاء الدين / منال النجار





مقام الخلوة



المكان شاسع كأنه قبر لأجسادنا الكبيرة أيضاً، ولا بد إذن من المدى...
أياً كان، قالت لنفسها وهي تفتح زراً من قميصها معتقدةً أنها دخلت طور الشعر الآن، وربما ستكتب قصيدة إذا ما استمرت في الضجر. ثم لماذا عليّ أن أنجذب إليه هكذا؟! - سألت نفسها أكثر من مرة في الآونة الأخيرة هذا السؤال تحديداً - لأنه دبق للممارسات الحمقاء ربما، وأنا متطهرة الآن. وحتى لا تتناقض مع نفسها أكثر وتصاب بانفصام شخصية هي بغنى عنه، حسمت الأمر.. حسناً؛ هذا قرار. كانت تفكر وتمسك ساقيها عن المضي ثلاث خطوات إلى الغرفة المجاورة، حيث يجلس أمام الحاسوب كعادته...

هل يعقل أن يكون هذا مكان عمل؟! ما عساني أعمل وأنا أسمع شهقات مؤجلة في حنجرتها؟ آه.. الأنثى التي تسعى إلا للخراب! الله يرحمك يا أمي.

نداء الكعب وهي طافقة نحوه جعله يتستر بسرعة على هذه الفكرة بالذات. لأنه متمدن. هكذا يحاول أن يظهر على الأقل، لا رجلاً يفكر بشتم النساء ويفكر بأمه العجوز فيما إذا كانت تريد شيئاً. أنا ذاهبة. لماذا لا يدعوني هذا الأحمق إلى فنجان قهوة قبل أن أهم بالرحيل. نوع من استراحة بعد العمل ألا يفعل الشيء نفسه بقية الموظفين؟.

تريد شيئاً.. شيئاً، كأن ألتهم هاتين العينين أولاً، قبل أي شيء أخر... ثم غاب في تضاريس ثدييها..

ثانية الصمت هنا حملت ثقلاً رهيباً لا يحتمله أفق المكان العالي، حيث صار السقف أعلى، ولكنه ضاغط على كليهما. إن الأشد خطورة في صمت غير حكيم، ولم يخطط له مسبقاً، هو طرق الخروج من الأزمة الخانقة للكلام دون أن تصبح أبله اللحظة القادمة، ثم إنها أفعى بحق، ولكن لطالما أثارت اهتمامي المرأة ذات البشرة المنزلقة. ثم أضاف بعد أن صفعته عدة وضعيات مختلفة: بإمكانها أن تذهب متى انتهت من عملها، دون أن تسأل عن حاجتي الآن.

حسناً، لا شيء...

إنه أحمق.. ومضت خائبة.

في اليوم التالي تساءلا سوية بصمت: لماذا لا يوجد في دائرة حكومية سوانا.

هي موجودة الآن، علي أن أبتعد قليلاً عن العبق الذي تنثره عمداً في طريقها إلى الحمام... اليوم قال لي صديق عنها: إنها سليطة اللسان، لكنها ذكية. فكّرَ إذا ما وجهت له يوماً إهانة ذكية وسط الزملاء، أنه سيهشّم رأسها الصغير كشاشة هذا الحاسوب، وبقبضة واحدة أحاله شذراً أزرق ناعماً على الأرض من تحت

كرسيه، وشدها من شعرها إلى أسفل منخاره الثوري. قال بصوت خافت واثق مليء بالتوستسترون: لن أسمح لكِ بإهانتي يا صعلوكة.. أو هكذا خيّل إليه أنه سيفعل، في حال وجهت إليه تلميحات ذكية ومهينة له شخصياً، فكّرَت في اللحظة ذاتها، أن آخر شاب أحبته نعتها بقلة الأدب وانعدام التربية المزمن الذي لم يخترعوا له علاجاً بعد، وهي محتاجة للتركيز في هذه المرحلة من حياتها، كما للراتب آخر الشهر، لأنها كفتاة شرقية لا تقدر على التورط بعلاقة حب دون أموال أضافية من أجل البريستيج على الأقل وامتطاء التاكسي واقتراحها الشجاع لمقاهي فخمة جديدة في البلد. وعند صنبور الماء تقابلا. إذ لابد من نقطة التقاء في الحكاية، تخيلوا! قصص العشق دون مكان يلتقي فيه أبطالها، جولييت مثلاً كانت تملك شرفة تطل منها وتطفىء لهيب الرجل، لكن الشرفة في عصرنا لا تنفع لمثل هذا النوع من اللقاءات في كل الأحوال. ما هذا؟ قالت له. كان يحمل كتاباً عن نقد ما بعد الحداثة... لا أومن بالنقد. صرخت بوجهه كفاجرة مغتاظة، ربما كانت تحاول أن تفتح حديثاً فقط، ثم طيرت الكتاب بصفعة واحدة من راحة كفه إلى تحت الصنبور المتدفق مباشرة، بدت العملية التي لم تستغرق ثانية دقائق ضوئية لم تختبر كثافتها يوماً ولكن قرأت مرة في مجلة علمية عن الموضوع، ثم حملت الحقيبة من على المكتب، وهرعت إلى الخارج. وفي قرارة نفسها أيقنت أنها تستحق صفعة على ما ارتكبته من حماقة، وتصرّف بنّاتي مائع بامتياز، ركض وراءها بجاكيته الرسمي: توقفي. قالت له: لماذا لحقتني؟ لم يجبها. ركضت ثانيةً وركض وراءها: لماذا توقفتَ؟ لأنكِ توقفتِ. وهل أنت ببغاء الأفعال البشرية الفجائية؟ صرخت ثانية، ثم ركضت. توسل إليها أن تقف، لأنها جعلت منهما فرجة مجانية للمارة، فتوقفت، ليس استجابة لتوسلاته، بل كي تتأكد بنفسها من أنه قد وقع في الحالة غير المفسرة على الإطلاق منذ أشهر. لماذا تقف الآن؟ كانت تسأل بجدية لم يأخذها على محمل

الجـد، أم أنك معلق بسـلك حول خاصرتي؟ (لم تـرد أن تقول: عند مؤخرتي، لأنها جـادة الآن) كما أن العلاقة بينهما لا تسـمح بتبادل الشتائم. ضحك بهسـتيرية من اشـتاق إلى مثـل هـذه الألعـاب في عـصر شـتائي كئيـب، في مبنـى يعـود إلى حقبة الاسـتعمار الفرنـسي. الركض في الشـوارع العامـة والتحدث بأسـلوب لا منطقي هكذا وهو يلهث، قال لاهثاً وهو يضع ذراعاً أثارت اهتمامها على كتفها المتصلب: أنت مجنونة... أقسم بذلك..

ولأنـه يملـك أطيافـاً متعـددة تجعلهـا تشـتهي أن تتمـرغ في سـفوح نديّة لا متناهية، كلما مر في عالم اختزل السكان إلى كليهما، قررت أن تكسر اللون المحيط به اللون الذي يزهر نباتات دمها دفعة واحدة ويمنحها بخضور الحياة، لعلّها تشفى من هذا الشغف كله.. وهذه الخيالات التي تنهكها طيلة النهار. ذهبت في الصباح الباكـر إلى بيتـه، فلقد زارته مـع الزملاء عند انتقاله إليه، لم تكن تعلم أنها سـتحفظ العنـوان، وفوجئـت من قدرتها الخاصـة في تذكر ما ترغب بـه سراً؛ ذهبت إليه مع حفنة من سنابل القمح ستضعها على بابه وتمضي بهدوء كما خططت في ليلة البارحة، صعدت الدرج خاطفة هواجسـها نحوه. فُتح الباب فجأة كأنه كان ينتظرها طوال الليـل، مُدت ذراع اتكأت عليها مرة، وتقَبـل هو الخطف برحابة صدر. بعد مرور سـاعتين وقفا عراة مواجهة: أريد شيئاً حلواً آكله، قالا بنفس اللحظة وغرقا سويةً في لحظة تأمل خاصة للأخر.

وفي دراسـا ت طبيـة حديثـة أكـدت أن ٪70 بالمئـة من الأزواج يشـتهون السكر بعد ممارسة الحب. السكر والحب، إذن إنها الكيمياء!.

نص الغائب في الضجيج



ثمـة طريقة اكتشـفتها الفتـاة صدفة، حتى تبقـى قريبة مـن خريطة الرجل خـارج المنزل، أيام العمل النادرة حصراً، الأيام التي يُترك التلفاز وشـأنه، الطبخة وشـأنها، الشـلّة وشـأنها، المؤخرة وشـأنها أيضاً... منذ فترة ابتاعـت من المحلات المرصوفة بمواجهة المدينة الجامعية التي تبيع أدوات التجميل بأسـعار طلابية قبعة زرقاء نفخ فيها ساحر صيني عجوز أنفاسه الأخيرة، ثم قهقه عالياً قبل أن يموت، حيـث اعتاد أن يلهو أثناء دوام العمل الطويل ضمن المصنع الأمريكي الضخم في المنطقة. المهم أنها ما إن وضعت القبعة الـ (سـبور) على رأسـها، حتى صارت على مقربة خطوة منه. هو ذا الآن يبصق من خاصرة الحافلة الرمادية التي تتكدس فيها

أجساد الموظفين رجالاً ونساءً قبل أن ينحشروا، أيضاً، في مكتب واحد. تدحرج إلى حضنها فتلقفته هي بأمومة أصيلة. حسناً، لو لا حضورها الافتراضي إلى جانبه لسقط هو حتى قبل أن يضع قدمه على الرصيف! هكذا إذن، يسقط على وجهه إذا لم تكن بالقرب منه.. بداية أثارت حفيظتها تسريحة شعره هذا الصباح - هو الرجل الذي لا يملك فكرة واضحة المعالم عن الكائن الذي يدعى الحلاق، وربما ظن سراً أنه مختص برفاهية معينة للذكور الأغنياء.. اغتاظت من شكله (المبهدل) فنظرت من حولها تتمنى أن لا يراه أحد يعرفها. تنشغل عنه قليلاً، فيجازف ويخترع نسقاً لونياً جديداً على الساحة وخطيراً حقّا، ثم يهم بالخروج ويغلق الباب وراءه بكل فخر. اغتنمت فرصة أنها ذات وجود لا مادي في الوقت الراهن، حضور غائم جزئياً غير واضح، والدليل على ذلك أن أحداً لم يتحرش بها في كراجات وكالة سانا، فاغتنمت الفرصة جيداً، وضعت راحة كفها على مدرج الرقبة تماماً، مصحّحةً من اتجاه طيرانه نحو الجسر، فظن، هو، أنه مازال يترنح من سكرة البارحة، أو أنه مازال متأثراً بالجرعة البصرية المكثفة لكافة أشكال وأنواع المؤخرات السورية الكادحة، نازلة وصاعدة إلى الميكروباص. كان يفكر بالمتغيرات التي طرأت عليها أيضاً، وبالنتائج المباشرة للمأكولات السريعة على الجسد البشري، فكاد يصطدم ببائع اليانصيب. خافت هي .. وقف شعر رأسها، صرخت بقوة ولم يسمعها أحد، أقفلت عينيه بكفيها الصغيرتين على عجل، ودفعت ببائع اليانصيب الشرير جانباً.. بكل بساطة؛ لا ترغب أن يخسر نقوده مرة أخرى.

أزاحته نحو اليمين، انبثقت فجأةً بسطة كتب قديمة راحت تتلوى أمامها مثل كوبرا هندية مغرية جداً، ارتعبت، شهقت، كزّت على أسنانها، لأنها تعلم جيداً، أنه سيشتري كتاباً أخر ثم يندم على ضياع حصيلة الشهر كله، فيحرقه الندم ببطء، فيشتري (قنينة) عرق أخرى. مشت معه طوال جسر المشاة، تذكرت أن أحد

أصدقائهـا يتتابـه حلم غريب تجـاه هذا الجسر بالذات، كأن يتحـول إلى مكان راق ترتصف على طوله مقاهٍ وبارات يتنزه فيها العشـاق بثياب تليق بالسـهر، عاشقـات بفسـاتين جذابة وعشاق بـ (التوكسيدو) يجلسون على طربيزات بكرسيين فقط مع أضـواء خافتـة، سـمعته يفكـر بصوت عال: لـو كنت يـا غالية معي في هـذا اليوم الشـائك، هـذا اليـوم الكلب ابن كلب، تشـاهدين معي دمشـق كيـف تحولت إلى مرحاض عمومي كبير في الألفية الثالثة بعد الميلاد، كيف صارت الشـام بلداً محتلاً مـن الغجـر، يسـفحون المدينة بتصرفاتهـم الغريبـة، يسرقون الأطفـال، ويملؤون الأفواه أنياباً معدنية، بلداً دون أقل إحساس بالهندسة. مكاناً بمثابة مرتع لدجالين، رعـاع، حمقى، موظفين، نصابين، محتالـين، مهزومين... - أه يا أغبياء- وقرف، بل أشد من القرف، لا أعلم ما هو الوصف! حسناً؛ أرغب بالتقيؤ حقاً..

استند الرجل على حافة الجسر المعدنية في الشـارع. انقلعوا. صرخ الرجل وسـط الزحام ولم يسـمعه أحـد... قالت: اخـرس وإلا نعتوك بالهبـل... هل أنت سـكران؟ لكنه تابع الصراخ: انقلعوا، وإلا أفرغت ذخيرة كاملة في رؤوسـكم... دار حول نفسـه مقلّداً وضعية من يحمل كلاشينكوف، مطلقاً أصوات الرصاص. تسارعت نبضات قلبه بشدة، وانتبهت هي إلى حمرة خفيفة على خياشيمه... لوهلة أصابـه شـغف غريـب باللعبة، لكنـه تراجع فجأة وهـو يفكر بأن الرجـال حتماً في غيبوبة، والبضاعة الفاسدة صارت شعاراً للمدينة بكل الأحوال- شعاراً ستحمله يافطـة كبيرة في إحدى المهرجانات السـياحية: أهلاً وسـهلاً بـزوار مدينة البضاعة الفاسـدة. قال، وضحك بطريقة هسـتيرية تكرهها هي.. إذ توحي لها بأنه يسـتعيد دور أحد أصدقائه في مسرحية ما.

خفف من حدة الأداء وأكمل المسير نحو العمل، هذا ما يجول في بالك إذًا، قالت له، تأبطت ذراعه وابتسمت بخبث...

لو أنكِ معي، تشاهدين العساكر في يوم الإجازة، كيف يمشون في الشوارع كملوك يستبيحون نساءً ذاهبات إلى العمل، يعرّون الواحدة في خيالهم كأنها داشرة، يمارسون كل قذارات الخدمة العسكرية كتقاليد ثابتة تشمل الجميع. الخدمة العسكرية التي ما زلت تهرب منها أليس كذلك يا حبيبي؟..

يشترون كاسيتات أغان شعبية، والأجدر لهم أن يبتاعوا صابوناً ذا رغوة وفيرة جداً.. لم تكترث لهذه التعليقات التي يتفوه بها دائماً، فصارت مملة بالنسبة إليها.. ولكنها تذكرت فجأة أمراً ما، قالت له: لا تنس أن تذهب إلى البنك لتستفسر عن القروض التي سحبتها جزافاً يا حبيبي... لم يسمعها بالطبع، كان مستغرقاً في الدرس الذي لقنته إياه ذات ليلة عن مبادئ الاختلاجات النازفة على الجسد الذي لا يشبع، وأصول الشهقة تلو الشهقة على مشارف شفة واحدة.. تنشغل هي بكوارثه المالية بينما يبدو منشغلاً بالأحلام الجنسية.. أخ؛ الرجل أحمق.

في الطريق شاهدت رجلاً يجلس على الرصيف بالقرب من لافتة تقول: قف. بعد عدة أمتار لمحت الرجل نفسه جالساً يستظل بلافتة تقول: ممنوع الوقوف أو التوقف... ربما كان نشيطاً في الركض نحو مثل هكذا إشارات لا أكثر. خلال مشاهدتها للرجل النشيط في الركض نحو إشارات المنع مباشرةً، كان هو سيشتري كعكة تسبب الإسهال (ع الماشي)، صفعته بقوة: لقد قلت لك مراراً إن لك معدة مثقف يساري شاب لا تقدر على بلع كل شيء! رمت بالبائع وكعكاته إلى الأرض، ثم نفضت يديها جيداً كربّة بيت ممتازة. ثم هبطا الدرج سويةً، التقى بالصديق الذي يلتقي به دائماً في كل شارع في المدينة، هذا الصديق ذو الحديث الماسخ، والأنف المدبب، ما اسمه؟ نسيت اسمه الآن، الصديق الذي تشتهي تمزيق حذائها العتيق عليه كلما التقت به بالصدفة، ربما حين يتطفّل على سهرة، أو يطلع من العدم، أو ينحشر في الثياب الداخلية للرجل الذي بصحبته الآن.. هي محض رغبة

دون مبرر نفسي. في الحقيقة هو لم يفعل شيئاً يزعجها، تأكدت الآن أن وجهه هو السبب، والضجيج، نعم هو الضجيج، الضجيج السّمّي.

لكنها بكل الأحوال ابتهجت بشدة حين ألقت القبض عليه متلبساً، يفكر بهذه الطريقة أثناء غيابها، يتذكر كل التفاصيل التي تخصها، ويتذكر كذلك أن يردّ الصاع صاعين لهذا الزميل المتشاوف، و(يطق له برغي ماكن) خاصة أن في حوزته مستندات...

قبل أن يدلف إلى البيت يبتسم ابتسامة خبيثة تكرهها، ويشتري (كروز) دخان، ثم يحكي لها الحكاية ذاتها التي تجعلها تطلق ضحكة سخيفة يهيم هو بها.

الليلة سيحكي حكايته، ضروري. وستضحك ناثرةً من فمها زهور البرتقال. أجل، سيحكي لها قصصاً عن غبائه كل ليلة قبل الذهاب إلى السرير!

بينما كان في طريقه إلى الوظيفة اكتشفت، من حركة عينيه الدائريتين، أنه يستجدي ملامح بشرتها النظيفة بعد الحمام، يهمس: جسدكِ ندي ندي أيها الرب، وكفاي جافتان كالليفة التي تفركين بها كعبي قدميكِ. حبذا لو تنقعينني بالخل شهراً. يستحضر أريج الأنوثة ليخفف من الغازات المسيّلة للدموع وعوادم السيارات. لو ينثرون عطركِ في الطرقات لأستطيع المشي فيها... ولماذا لا تقول لي هذه الأشياء الحلوة دائماً؟ عاتبته بحزن، ثم أضافت: أحبك.. أرجوك، فكر بي هكذا على الدوام، ولكن إياك أن تنس، اتصل بالرجل الذي وعدك بأن... وقبل أن تكمل، استل هاتفه النقال من جيبه واتصل به مباشرةً. للحظة تخيلت أن للمقبعة مميزات إضافية كنوع من كرم صيني مجاني، لكنها لم ترغب بالشطح أكثر، واقتنعت أنها مجرد صدفة. بعد أن انتهى من المكالمة كان يحكي مع نفسه، وكانت تنصت إليه ولا يراها، تنصت ويتهمها، كعادته، فيما بعد بإهمالها إياه: أين أنتِ اليوم؟ راح عليكِ هذا المشهد، ألم أخبركِ يا غبية أننا نستطيع أن نهاجم؟ تعاندين، تكبّرين

رأسك وتأمرينني بأن أخرس. أي، اخرس، قالت له.. الآن انظري إلى هذا الجيش الجرار رجالاً ونساءً باتجاه سرفيس (مزة جبل - كراجات) حتى إنني أخال ذاك الفتى المهتاج هناك، صلاح الدين الأيوبي قادماً... لو أنكِ معي في هذا اليوم المغبر، أنت معي، تلتصقين بي في السرفيس عوضاً عن هذا الأحمق ورائحة فمه الكريهة كنهر بردى الجياش، ثمة سؤال كم أحتاج أن يجيبني عليه أحد ما. من هذا الذي أطلق على المدينة صفة الوردة الجورية؟ ومن بصق هنا؟! أين؟ هنا.. هنا.

كم أكره يا حبيبتي أيام العمل الطارئة، أريد أن أندس في بطنكِ مدّعياً أن لا شيء خارج البيت، كأن أحسب أن الخارج ذئب، وبيتنا جزيرة وديعة. نظرت إليه، مطّت شفتيها، أعلم هذا لا عليك، حسناً أعلم. ولم يسمع شيئاً كعادته أيضاً...

ثم أمضى نصف النهار في الدائرة الحكومية التي يعمل فيها، يشرب الشاي مع الزميل (أبو حسن) وتجلس هي في الكرسي الثالث بينهما ولم يرها أحد، يثرثر ويستمني، سراً، الكسل على فخذها الأسمر العاري، يضع كل ثقل رأسه أولاً، يتثاءب ثم يتقلب بهدوء، بينما تعبث بشعيرات صدره بيد، وتمسك كتاباً يدعى (المحاكمة والإرهاب) في كفها الثاني!.

بعد ساعة ذهب إلى الموعد مع الرجل الذي ينوي مساعدته بشأن القروض.

خلعت أخيراً القبعة الصينية العجيبة، واتصلت به حين كانت، عبثاً، تنتظرّ تاكسي في شارع النصر، كان يقف تماماً أسفل حائط كبير كُتب عليه (لا تبول هنا يا حمار)...

أنا مشغول الآن، أنتظر هذا الـ...

حسنًا، حسناً... فقط... أردت... لم تقل لي اليوم: كم أنتِ تافهة يا حبيبتي!

مسامات مفتوحة للعبث



ما الذي تجنيه الفتيات من النّضج؟! كبرتِ كسحابة بيضاء تدلف إلى جنة البيوت، وتخلفينني وراءك محتاراً، إلى الآن، في تحديد عمري! هكذا لسعتني الحياة حتى صرت مقروصاً كنجمة سوداء، ثم جئت إليكِ أرغب باستعادة يفاعة تقطّرت في بحر الأحداث الأخيرة، العمل واللهاث نحو مناصب أعلى، أستعيد تلك الصورة القديمة: عينيكِ اللعوبين، صوتكِ العالي، وكل هذه الفوضى التي شغلتني في الجامعة، وقهقهة تسفحينها بمهارة على الجهات الأربع، رافعة وجهكِ إلى السماء، فيُهيّأ لي أن الرب سعيد معكِ أيضاً، هكذا تغيب عيناكِ، بينما تتسع فتحتا أنفكِ كالقردة، يا لهذه الصورة، أين أنتِ؟ أين أنتِ من اليوم الذي كنا نمشط فيه

الشوارع... ماذا كان يقول لكِ أبوكِ؟ حسناً؛ ما زلت أذكر هذا: خريجة كلية هندسة الشوارع العامة.. ثم نمارس العطالة كملوك منتهي الصلاحية، فتاة حلوة بشعر أسود وبنطال جينز وكنزة قطنية، نمشي معاً ساعات طويلة تروين فيها الحكايات الكاذبة عن جدكِ الذي كان يملك فندق الشام، وعن أدونيس - الشاعر الذي قبلته وسط كل الناس بلا خجل، ولاحقاً حاول أن يكتب من هناك قصائد حداثية، قبلته فطلب يدكِ للزواج! ألا يكبركِ كثيراً هذا الأدونيس؟ لم أرغب أن أقول لكِ، لكن لطالما رأيت أن شعره معقد ويصعب فهمه! ومازلتِ تفكرين بالموضوع ربما إلى الآن، أنت ماكرة. ربما ما زلتِ تسوّقين مثل هذه الأفكار، ووحدي أسهر الليل كله ألعن مصابيح الكهرباء والبنايات الشاهقة، جغرافية الشام، ممتعضاً من رتابة أثاث غرفتي؛ لون السرير ووجه أبي البارد، أنتظر فجر قدومكِ إلى باب كلية الحقوق، بينما يفكك ألغام جسدي الوقت ببطء قاتل، حتى يكاد صدري أن يصير عقرباً ساماً في الجدار.

أستاذ .. أستاذ..

هل أنت بخير؟ نعم، ما الأمر؟

هل الأوراق تحتاج إلى تدقيق، أم أرسلها مباشرةً؟

لا أعتقد، مرريها على الأستاذ علي بكل الأحوال.

تسرقين ليمونة من عربة الخضار، تنهشين نصفها، تهدينني نصفها الثاني، وتضحكين. لا تأبهين بالدبق، ولا بتلويث البنطال، والمجتمعات الشرقية. بينما أمر من بعدكِ كالسائر في نومه عبر غابات كاملة من الحمضيات، الأيام التي كنا نجلس فيها على الرصيف المواجه للمتحف الوطني، هذا الرصيف لا يتسع لجلسات طويلة، وتعلمين ذلك.. تثرثرين دون أن تمنحيني حق الرد! يعجبك فيّ ملامح سذاجتي وصمتي العجوز في حينها، ترمقين بطرف عينيكِ تلعثم حواسي وتشتّت

ذهني، يا إلهي؛ نسيت أن أغير زيت السيارة، ما العمل؟ تُسيئين الظن دائماً لأنكِ أنثى. وما الذي تعرفينه عن الرجال حين يقعون في مياهكِ؟

تضعين رأسكِ بين كفيّ، تزرفين دموعاً غزيرة أكاد أصدقها لولا معرفتي بالعبث الذي تسلكينه.. لتخبرينني سراً خطيراً: أنا مصابة بالإيدز!

مأيدزة... إيدز.. أنتِ؟ وأنا لا أرغب في العمر سوى صحبتكِ واهتراء آخر حذاء أملكه معكِ في أزقة الأحياء القديمة وتكفيني تلك البساطة، تختفين برهة فتكونين قد دبرتِ مقلباً بأحد المارة... ماذا فعلتِ، لا أدري. تركضين، فأركض خلفكِ وأكون قطكِ المفضل دائماً. وأحلم بكِ في أرقي الصامت، لم تعديني بشيء. وما أناله آخر النهار استراحة محارب بين ذراعيكِ، وقد سرقتِ من جيبي الخلفي سيجارة.. حتى اتصلتُ بكِ البارحة: أرغب في أن أراكِ حقاً..

فاجأتني كلياً! حسناً؛ مر غداً إلى صالة عشتار في الثامنة والنصف. مررت فأصابتني مباشرة ضحكتكِ بين اللوحات التشكيلية، وقد ارتديت ثياباً كالسيدة الصغيرة: تنورة سوداء، جزمة طويلة، جاكيت قصيراً.. عاقصة شعركِ بدقة، قبل أن تلمحي وجودي في المكان، سمعتكِ تناقشين بعض الناس عن المحاضرة التي ألقاها (عشيقكِ السري) في الجزائر...

كيف حالك.. يا إلهي كم أصبحت جميلاً في غيابي.

مهزوماً أمسكتُ كفيكِ الصغيرين: لقد تغيرتِ... يباغتكِ فجأة حزن ألف عام، فأندم على إثارة زوبعة الذكريات بهذه الطريقة. ليس لهذه الدرجة، وفقط تضحكين...



صحون سلمان النظيفة



ستأذن لنفسك أخيراً أن تنسى، عشرون زجاجة بيرة «الشرق» وتدخل غاضباً. كلهن سافلات يا سلمان. المشكلة تكمن في انعدام الحوار البنّاء... يتفلسف طوال السهرة، لا نملك ثقافة الأخر! ولا نستوعبه أصلاً، وتروح فتيات كالسكر المحروق بأجساد مزدهرة، وتجيء أخريات كالقشطة، وابتسامة تطيح بالعتيد ما بيننا في الشلة، فلانة رأسها يابس، وهذه فيها من الدجاجة شيء، أو شيئان، وللعنزة فضائل كثيرة على فلانة.. وهذه مدعية تسألها من هو السهروردي؟ فتجيب: علاّمة في اللغة العربية... ربما؟! وعلتانة ليست صادقة تماماً، أشك بأنها تكلّم على الهاتف عشاقاً غامضين على هيئة زملاء وجيران وأولاد حلال...

وأنـا يا صديقي... أيضـاً ابن حلال، أنهيت يا رامي خمس عشرة زجاجة حتى الآن ولم أنل نصيبي من الدبق الذي تشتكي منه، ولم ألوث ملابسي بدسم العشق قط، هاهو بنطالي معلق، وما تغيرت كسرة قماشية واحدة فيه. يا رجل أنا الآن أشك في أعضاء إضافية رغم جموح مخيلتي التي بلا رسن.. يخرجن من باب بيتك مسرعات إلى الشـارع، يهبطـن كل هذه السـلالم، ولا تقـف فتاة لتفحص باب الشـاب الذي يقطن تحت بيتك، ولم يدعه الحظ إلى الوليمة... إلى أين؟... هيههه... إلى أين؟

هنـاك خطأ في المنهج، تتبنى أنت أسـلوب القتيل عاطفيـاً، والحري بك أن تتصرف مع البنات، وكأنك انتهيت للتو من جزيرة النساء بشتى المراحل العمرية، ثمـة مـن قال: انظر إلى هذا الجسـد كبدعة هندسية رائعـة دون أن تتورط بالحب، هكذا تتخلص، بثانية، من الوقوع في الإغواء الخطير، أنا أحياناً أؤمن بهـذا يا سلمان، تصدق...؟! أجعل الأنثى تراك رجلاً صعباً لمجرد أن تشـعر أنها عاشـقة مستحيلة حين تضع رأسها على الوسادة آخر النهار...

الرغبـة تجتـاح أفكاري أن أتعفر كلياً بشـعثاء المزاج الأنثـوي، الذي طلقته (بالتلاتـة) كـما تدّعـي الآن.. والله يا رامي سـأتوقف عن النق، فقـط أوجد لي فتاة تعشـقني! سـمعت كل النصائح... لذا لا تقل المزيد، ثم ماذا عنك؟ تطارد واحدة كصفقـة عمل مهمـة، ثم تجيء إلى المقهى تثرثر كهاذ بحمى مصطنعة لا تخفى حتى على النادل يا رامي، تحتسي كأساً أو كأسين في بيتي، ثم تنسى كل شيء وتجر غطائي الوحيـد نحوك، تـاركاً إياي على النافذة أفكر بحسـناء تفوّر ركـوة القهوة مع هذه الجسـد المغبر، وهذا محسـن يقضي أيامـه بالتخطيط للنيل من زوجـة جميلة، مطيعة لأوامـر أمـه، وقد قرأت بريخـت جيداً، وحتـماً مثيرة على السرير في الوقـت نفسـه، فتوفـر عليـه جهـداً إضافياً. وأنا لو تـدرك أي أنثى قلقي الصاخـب في عتمة يأسي لتطوعت من باب الإحسـان فقط لا أكثر، وشـاركتني بالمجون زمني الـتافه، ثم أي

منهج تتحدث عنه؟ أستطيع أن أسلك منهجاً مع مديري يفهمه جيداً، فيدفع الراتب الشهري بينما أنتهي من عملي كله في المقهى، أسلك خطة معينة معك فلا تنشل (السيديات) جميعها، (أريد أن أحب كشجرة) هل تفهم علي؟! ثم ماذا عن المنهج الذي تتبعه أنت؟!

حسناً؛ لقد كانت لحظة غامضة تلك التي أطاحت فيها فتاة لا تتجاوز (الشبرين) بكل أفكاره عن الحب والجنس اللطيف حين صفعت باب التاكسي وهي تقول: كنت أتمنى أن توقف أنت سيارة الأجرة على الأقل! هذا! بعد أن أطلقت صافرة مدوية من بين شفتيها المكتنزتين وأثارت استهجان المارة الذين رمقوه بنظرة خاصة. هكذا رجع إلى غرفته مخذولاً، وبائساً، وضاحكاً أيضاً.

وحين سألتك عن كتبك التي سرقتها من هنا وهناك، أجبت أنك استودعتها لدى رجل تحت الجسر، لقد كنت أبكي يا سلمان حين وضعت كل دواوين الشعر في العلّية، لم أعد إليها قط، ولم أستطع التخلي عنها، نحن عاجزان عاطفياً، أنا وأنت، دعنا نقر بهذه الحقيقة أولاً، بائسان لا نقدر على إقناع أي تافهة حتى بالأساليب الجديدة الطالعة، ليس بإمكانك يا سلمان أن تحب! انتهينا.

كان الاثنان يجلسان في المقهى كالعادة حين مرت فتاة منعشة كالربيع. ابتسمت لهما ومضت في طريقها، أليست تلك صديقتك السابقة يا رامي؟ أي؛ هي. ماذا جرى مع البنت التي تعيش في المحافظة الشمالية؟ ها.. جاءت أخيراً، أقامت بين ذراعيي أسبوعين من الزمن، وشعرها الأسود طار في كل أزقة دمشق القديمة، ثرثرنا في أماكن مختلفة، ومشيت فيها أنا بزهو (أنطونيو بانديراس) مستسلماً للعشق الطارئ وسطوة أنوثتها، ما أجمل يا رامي أن تمسك واحدة كفيك أيام الزمهرير حين تكون شارداً ولا تملك نقوداً، لكن،... لكن ماذا؟

القـذارة عمت المكان، أشياءها منثورة وكأن الأغراض ستلحق بها بعد قليـل، تخيل يا زلمة؟! لا ترفع كأسـاً مـن الأرض. وجدت حذاءها الضائع وسط المكتبـة متربعاً بوقاحة وكأنه وردة بيضـاء، لمحت في البداية أنني لم أعد أتعرف على بيتي، ثم صرخت حتى بح صوتي، اغسـلي ثيابكِ على الأقل، أو لن تخرجين فيها! ليسـت طبيعيـة، لقد غفت وفي فمهـا نصف قطعةمن (البيتـزا) وهي تحضن العلبة الكرتونيـة، بينما كنا نشـاهد التلفاز. من يخيل إليه أن حسـناء ناعمة ورهيفة للغاية تمقـت النظافـة هكذا، وتـأكل طعامها في صحن متسـخ منذ عهد أسـبوع كامل في المجلى؟ وفي السـاعة الثانية عشر ليلاً قررت الاستحمام أخيراً، أيقظتني لأسخن لها الماء على الغاز، لمحت أكواماً مكدسة من الصحون في طريقي إلى الحنفية، فاقترحت أن تجـلي الصحـون بـدلاً من دوش لا يقـدم في هذه الفوضى ولا يؤخـر... تجلي في منتصف ليل كانون الثاني، أجننت؟!

جننت برجولتي، كنت سعيداً بالنبرة التي أطلقت فيها هذه الجملة بالذات: اجلي الصحون أحسـن لكِ...، لكن صوت الباب يصفق بقوة، أيقظني من أوهام القـوة التـي أخذتني وأنصـاف الجمل التـي تفوهت بها في لحظـة غضـب ذكوري، كانت قد خرجت مع حقيبة السـفر، وقد نسيت معظم أغراضها عندي، أليسـت تلـك الفتاة المنعشـة كالربيع صديقتك السـابقة يا رامي؟! أعتقـد أني أجبتك، نعم هي، هي، أليس هذا محسن من يتأبط ذراعاً رطباً وناعماً كالعشب الحار؟!.

حذاء أزرق يشبهني



الأمر الذي جعلني أرتجف من الخوف، وظننت بسببه، أن كل شيء سقط بين ركبتي الآن، هو فكرة خرقاء.

من اليوم فصاعداً، لن يسمح لي بالاتصال هاتفياً آخر الليل، كما إنه سيغلق الموبايل نهائياً، لأنه خبيث، ويعرف جيداً بأنني أنتشي بإزعاجه أيضاً، كأن نتحدث عن أمراض نفسية محتملة تعتريني وهو الوحيد الذي يعلم!. الفكرة مرعبة بشدة؛ سأخرج من منزلي مثلاً دون أن أقصد حي ركن الدين. إلى أين سأذهب الآن؟ سأحتار مطولاً قبل أن اقصد، إمعاناً في تعذيب نفسي ربما، سوق (البزورية)، أو (خان أسعد باشا) وحجتي الواهية لن تنقذني مطلقاً من اليأس. أنا هنا كي

أتمكن من سماع صهيل أحصنة الغابرين التي يخيّل إلي أنني أسمعها بوضوح حين أستدعي أرواح المكان الغابرة. ولأنه لن يتوقف عن إشغال بالي بكل هذا السعار، قررت أن أغادر الخان. تناولت محمّرة على الصاج. تمنيت لو كان مقهى (ع البال) قريباً فالصاج حرك شهيتي نحو كأس شاي. ماذا لو قرر هجري إلى الأبد.. لكن الفكرة حزينة أيضاً.. سأفقده هو شخصياً وليس الحب، وسأذكره بحسرة كذلك..

في الواقع سيحرمني هجرك لي من التحدث مجدداً مع الذكور لأنني خجولة جداً أو هكذا أظن على الأقل، بعد أن اعتدت على مشاركتك غرابتي كما كنت تصف آخر كل حديث فارغ وبلا معنى معك.

لكن الحمّى التي سرت ببطء مدروس من المجاري البولية حتى خلف رأسي هي من أوقعتني في براثن البطانيات الشتوية في عز الصيف، ومن الهلوسات التي أذكرها هذه الأيام بمتعة بالغة أحياناً، الحلم الذي يتنازع فيه عليّ ملاك وشيطان. شيطان يرتدي قناع ملاك مضطرب... ولا أعلم لماذا؟

قلت: روحي لعنده، بين الرجل ومرته ما في كرامة ولحمة وطنية.

على ما يبدو أن ملاكي هذا يكثر من مجالسة النسوة اللواتي أعرفهن! وشيطان متنكر بالبراءة يهتف بأذني بحماسة: الغالي ما يرخص. ما يرخص.. ولا أعرف هذا بأي سرفيس يتنقل عادةً؟

حسمت الموضوع في المنام فطردت الاثنين من ملكوت الحب الذي أسرح فيه وحدي، هكذا أخرجت جبيني من تحت الأغطية لأخرج بالحل الذي اعتقدته ذهبياً في فك الاشتباك مع هلوساتي، سألتصق بظهره. أي سألتصق به. جسدياً أقصد. مثل قرد صغير مذعور، ماذا سيفعل؟ نعم لن يقدر على نزعي منه مهما حصل. إذا ما التصقت به بهذه الطريقة المحرجة. سيمشي بين الناس مطأطئاً ومرتبكاً بالجسد الأنثوي المتعربش به بكل أمومة الأدغال..

غداً سأذهب إليه والتصق بصدره، كضماد منتهي الصلاحية. ثم وضعت نصب عيني الحركات التي سيقوم بها ووضعت أيضاً الخطة (أ) و(ب) وصولاً إلى آخر الأبجدية، حتى لو سيهشم وجهي في ذروة استفزازي الماجن له، لن أبتعد عنه خطوة واحدة: حبيبي بلا حيونة! لا تهجرني أرجوك. أرجوك.. هذا ما سأقوله له. هذا هو الحل!!

بعد أن جرّبت الوقوف دون أن أستند على طرف السرير، ذهبت مستسلمة إلى بيت العائلة. قرعت باب أمي التي كانت تحمل صحناً مليئاً بالخيار. سقطت محتوياته كلها من هول الصدمة، على البلاط الملمع. أعترف أنني مريضة، ووددت أن أغيف: مريضة به..

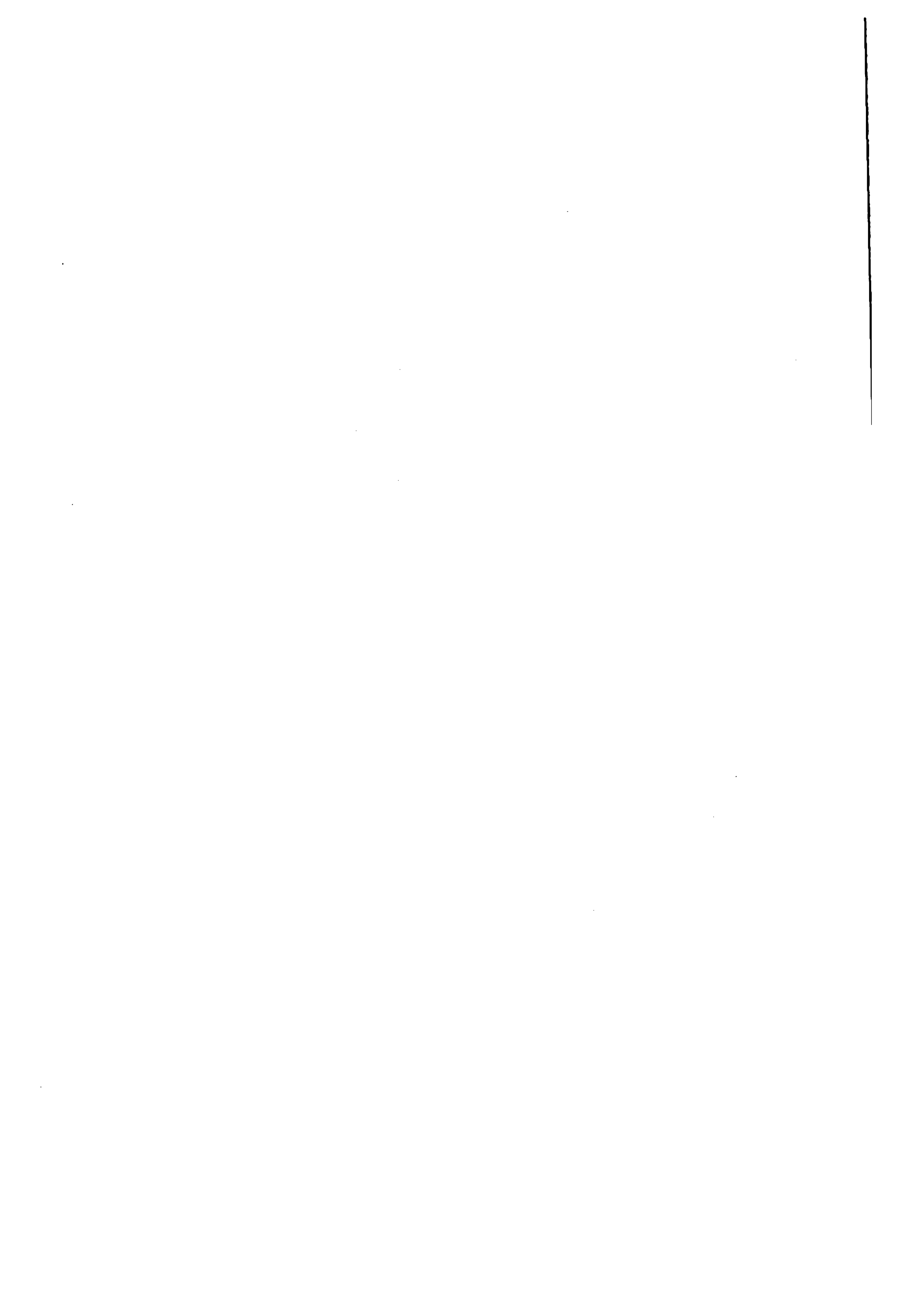
لكن هلع أمي انتشلني فجأة إلى حكم العقاقير بجسدي. خمسة أيام وأنا أهلوس به كمريدة حديثة، حتى صنعت من اسمه فضيحة عشق تدوي في أرجاء بيت العائلة، لكن في اليوم السادس تأكد الطبيب أنها حمّى الكلية المتضررة من سخونة البول المتدفق من غياهب الجحيم لا أكثر. وليست حمى العشق كما رغبت.. أذكر تلك الأيام البائسة، لكنني لم أفهم بعد كل هذا التشرد والمرض والتهديد والكذب والوعيد والترجي، ماذا كنت أشبّه بألمي، على وجه التحديد؟ يقولون عادة: وحيد كشجرة، مشرد ككلب سلوقي بائس، أو حزين كأرملة فقيرة. سأكون مدعية الآن إذا قلت إنه يشبه القدر. لن أتورط بهذا القول بكل الأحوال. بعدها خرج وجهك الرائع من روحي مع هذا السائل الرائق كالعسل البارد المصفى حين تبولت بتدفق نياغارا الهائل. وفي إحدى ساعات الغروب بينما كنت جالسة مع صديق في خانة العشاق المفترضين.. أتاني اتصال من شخص يتمتع بمنصب ثقافي مهم. لنقل إنه رئيس تحرير صحيفة في البلد. سألني: أين أنتِ؟. لم أتوقف عن سرد الأسباب والنق والاحتجاج الشديد على سوء المعاملة وعدم منحي عمداً الفرصة

التي أستحق. لم يردعه كل هذا عن العرض. سأعتمد عليك هذه المرة، وأضاف: شرفي يا خانم، استلمي شغلك، يدوب التلج ويبان المرج.

ألحّيت كثيراً على أن يكون مرج عملي الصحفي جميلاً ومشذباً. صرت أخلع كل عشبة ضارة من جذورها، أقصد: جملة في غير محلها. لم أكن أفكر بأي أمر بشكل مطول، لقد ألحّ عليّ كذلك؟!. ربما بالبيجاما القطنية ووجبة ساخنة آخر نهار العمل الشاق، حسناً ما الداعي لهذا الحديث الآن؟. تذكرون كيف كنت أتساءل مراراً: أشبه ماذا بهذا؟. لقد كنت أشبه فردة حذاء. ليس أي حذاء بل فردة بعينها.

كنت في طريق عودتي إلى البيت، أحلّق في السرفيس بأحلام غامضة، اتصل بي صديق يعمل مصوراً صحفياً، قال لي: هل تصنعين معروفاً معي، وترافقينني لتغطية عرض مسرحي في مدينة الزبداني. لا بأس في السياحة من وقت لآخر، قلت لنفسي قبل أن أنزل من السرفيس وأوقف تاكسي وأتوجه إلى الزبداني. كان العرض من النوع الممل الذي يحمل توقيع أستاذ قدير في المعهد العالي للفنون المسرحية. الكرسي لم يتحمل تململي الذي صار واضحاً للعيان، رفسني من عليه أخيراً، وأدرت ظهري للممثلين في منتصف المشهد وخرجت من الصالة بكل قلة ذوق وتحدٍ سافر، لحق بي صديقي، ولأنه ضجر أيضاً من المسرحية المخيبة للآمال، قفزنا مثل سائر السياح بين أرصفة البلدة الهادئة ضاربين عرض الحائط بجدية العمل الصحفي.. و(البرستيج) الثقافي أمام أهل البلدة الدراويش، ابتاع الشاب كيس موالح وعلكة، دخّنّا سيجارتين، ثم إن وجهي (الفوتوجينيك) ألهمه بجلسة تصوير. قرر أن يجرّب فحولة الكاميرا مجدداً، بينما كنت أنزل من أعلى الرابية، كما في فيديو كليب، تحت عنوان (حسناء تمشي بخفر على المنحدر). توقفت عند حذاء أزرق نسائي له وردة صغيرة زرقاء أيضاً على رأسه، جلست القرفصاء وكنت

أتأمل مشهداً خاصاً بي وحدي. كان هذا الحذاء يشبهني يوماً: صغيراً وجميلاً ومهملاً للأسف، أما صديقي فقد كان مستغرقاً في التقاط صور بلهاء لفتاة جميلة تجلس القرفصاء، وتتأمل فردة حذاء بالٍ، ربما ألقى به أحدهم من سور البيت الملاصق للممر الضيق، ولما انتبهت لما يفعله، ضحك بخبث وطفق يركض، كدت أركض وراءه، كي أصفعه. الأحمق جاء مبكراً في اليوم التالي، ناثراً صور الفضيحة على سطح مكتب الكومبيوتر، صار يضحك كالبقرة المجنونة مع الزملاء. لم أوضح لهم الحادثة، فقط ابتسمت. ثمة صورة أخرى تجاهلها. الصورة التي كنت لحظتها ادفع بالحذاء الجميل جانباً، وأنا أنظر إلى السماء مباشرةً...



لماذا لا تستطيع ضرب ذبابة؟!

يستفزه الصوت، تحلق بإلحاح فوق كرشه العظيم، من الغريب حقاً - أقصد - كيف تستطيع ذبابة تكاد لا ترى جيداً، كما لو كانت نتفة سواد طائرة في الغرفة، أن تجعل الإنسان يرتكب قرارات خاطئة؟! الذبابة تستريح على بياض الجدران النظيف، كش كش.. يحاول أن يبعدها، ما هذه المصيبة؟! قال صاحب الكرش من خلف مكتبه الأنيق، وهو يقلب الأوراق التي وضعها السكرتير منذ قليل، كش.. فكر الرجل الذي يشغل منصباً مهماً في الحكومة: ماذا لو رفعت هذه التقارير التي بين يديّ إلى هيئة التفتيش.. كش.. كش أخذ يفكر في هذا الاحتمال وهو يحسب الأيام القادمة، لكن؛ هنا توقيع فلان. أعاد النظر مرة أخرى لعلّه يجد

بصيص أمل ينجيه من رفسة مفاجئة من على الكرسي فينضم مجدداً إلى صفوف الموظفين الكادحين. هذا في أقل تقدير، وإذا لم تتطور الحكاية - لك كش - وينساق من غرته إلى السجن بتهم اقتصادية من العيار الثقيل كثقل وجود هذه الحشرة اللعينة، ثم حامت الذبابة الزرقاء بين السطور فضربها الرجل بالأوراق، وهذه حركة تافهة بالنسبة إليها، وهم - معشر الذباب - يختزن بذاكرته الجمعية مثل تلك المواقف، وعلى سبيل المثال، هذه الذبابة بالذات شهدت ضربات أوراق ومجلات وصحف، حتى فواتير الكهرباء والماء أكثر من فصوص عينيها... كشششششش. لماذا يوجد في مكتبي ذبابة أصلاً، من سمح لها بالدخول؟ هل يوجد في مكاتب الزملاء ذباب وحشرات طائرة أو زاحفة؟ الفكرة أغاظت الرجل صاحب الكرش لأنها لامست (برستيجه) لكن الذبابة شعرت بأن الرجل يفكر في منظره الاجتماعي الآن فكثفت من جولاتها الاستفزازية فوق رأسه، هذا أمر لا أسمح به على الإطلاق. كش، ثم ضرب بعنف براحة يده على الحائط، ومن شدة الألم الذي أصاب راحة يده جراء الضربة الحمقاء وضع يده المتورمة بين فخذيه، وكادت ذراعه الطويلة أن تُهرس كلياً، صرخ نصف صرخة ممغوصة، لكنه تدارك أمره فوراً وأطبق فمه، ثم ما عمل المستخدم هنا؟! عن أي عمل يتقاضى مرتبه الشهري؟ لكن الأرض تفوح منها رائحة الديتول الطازج، ما فاقم من سوء مزاجه هذا الصباح اللعين، فهو لا يحب رائحة المنظفات أيضاً.. هكذا أسعف الحظ الرجل الذي ينظف مكتبه وسقط من لائحة المغضوب عليهم في هذا اليوم الأسود.. ولكن الذباب لا يفضل ارتياد الأماكن النظيفة، صح؟! استعاد هذا الدرس من مادة العلوم في الصف الرابع الابتدائي، تحديداً الصفحة التي رسم فيها بئراً ارتوازياً بالقرب من مرحاض مع جملة قوية تنهى عن فعل هذا الشيء؟! الأمر الذي جعله يستنتج آنئذ، عندما كان طفلاً، أن الذباب لا يفضل الطيران فوق

المناطـق الناصعة على الملأ! هنا انتبه صاحـب المنصب الرفيع إلى فكرة مهمة حقاً..
يبدو أن سحابة القذارة الخضراء بدأت بالتشكل فعلياً في سقف رأسه وإلا ما الذي
يغري ذبابة في الحوم من حوله؟ لكنه يستحم كل صباح. فتح منخاره ورفع ذراعه
اليمنى ليشـتم رائحة إبطيه.. عطره الغالي سـد الذرائع بقوة ولم يسمح له بالتمادي
أكثر على أبهة الماركة التي تسيل منها الرائحة وتخترق منخاره بغضب، اطمئن نسبياً
لنظافتـه الشـخصية وأعاد قـراءة التقرير رغم إصرار الذبابة!! كـش، ياللفضيحة،
تأكـد من الموضوع تماماً. كش، لك كش. ماذا سـيفعل؟! كشـش ششـش. طارت
الذبابـة وحلقت كنسر فخور وهي مبتهجـة بتحقيق أول أهدافها الاسـتراتيجية،
تنتقـم مـن كل البـشر الذيـن حاولـوا الانتقاص مـن وظيفتهـا ككائن تحتـم عليه
بيولوجيتـه بالوقـوف عـلى مزابـل تاريخ المـدن في الـشرق الأوسـط، فيلحقـوا بها
بكفوف صفراء وحمراء وزرقاء وصحف و«شحاطات» وشراشف وقنابل نووية..
ولا يستطيعون الإمسـاك بهـا قط، حلقت ودارت فـوق البنايات واثقـة من جيفة
بعضهم التي تُشبعها شـهوراً طويلة، حين تضطر، على سـبيل المثـال، أن تلجأ إلى
الأماكن الأقل عفونة كحاويات القمامة. طارت الذبابة الكحلية الصغيرة، وحطت
على منجم التقطته حساسياتها الدقيقة. وهاهي تهبط بانسـياب يأسر القلوب على
شباك مطبخ المرأة التي تُعدّ الغداء لزوجها القادم من العمل بعد قليل. وسرعان ما
اكتشـفت الذبابة الملعونة أن لا علاقة للبخار الخارج من (طنجرة) السيدة باحمرار
خدي السـيدة، وإنما الصور التي تسـتعيدها في الذاكرة، صور بدت مبهمة للذبابة
بالرغـم من وزّها الشـديد فوق رأس المرأة. كانت الزوجـة تتذكر مجموعة الفتيان
الهائجـة كالثيران في فصـل الربيـع، حـين كانـت صبية يرغـب فيهـا كل الذكور،
وترغبهـم هـي كلهم دفعـة واحدة، ولا أحـد يُفشي رغباته لأحـد.. والآن ترقص
بكامل شهوتها لرجل واحد، الزوج الذي يبدو مشغولاً أكثر بشهوة التبولة وكأس

العرق فقط، تفكر في حياتها الآن كشكل من أشكال العقاب الإلهي التي تعتقد السيدة أنها تستحقه، فهي لم تكن بريئة فيما مضى، ومازالت تذكر الفتاة التي أشاعت عنها سمعة سيئة أمام الشباب المتحمس لجمالها، لأنها منافسة لا يستهان بها، وبهذه الطريقة أنهت الحرب الباردة حيث توقفت الفتاة المسكينة عن دراستها في قسم اللغة العربية لتكمل (كورس) التدبير المنزلي في المطبخ مع أمها، بينما تكافئ نفسها أحياناً بخيالات لاهبة، لكن لا تزيدها سوى نزق ويأس من روتين زوج لا مبالي. أحلامها التي تبخرت كالبخار المنبعث من هذه الطنجرة. كش كش، كانت تريد أن تبقى مغوية كالنار وطازجة كمربى المشمش حتى آخر نفس في رئتيها، كش كش، قبل أن تقع في براثن الحب المحموم، هذا العشق الذي إن جاء في العشرين لا تندم عليه إلا بحلول الأربعين، وهي الآن في الخامسة والأربعين، كش كش، ثم أين هذا العاشق الذي سيجعلها من مواطني الجمهورية الرومانسية رسمياً، أين هو عن زوج يتكلم بلغة مختلفة لا تمت بصلة إلى الحب ولا إلى الطبيعة أصلاً، كش كش، هددت الذبابة بالملعقة الكبيرة في يديها فابتعدت قليلاً، في الوقت الذي كانت تخطط بأن تصبح أعظم روائية في العالم.. مازالت تشعر أنها تقدر على منح الحكايات رجلين ودار نشر يتبنى رواياتها تيمناً بكاتبتها المفضلة إيزابيل الليندي، رغبة تشبه إلى حد ما رغبتها الأخرى بأن تستعيد بنطال جينز الماضي على جسد أكثر رشاقةً، كش كش، ثم لمعت عيناها العسليتان. حرّكت الطبخة بالملعقة الكبيرة في يدها، كانت أمها تتوسلها أن تتعلم الطبخ في أقرب فرصة، الآن هي نادمة لأنها تضيف بهارات اعتباطية قد لا تحتاجها الطبخة. كش.. وقعت الذبابة في الطنجرة، كادت أن تغرق في المرقة الحمراء، لكن الذبابة الجنية طلعت من الفقاعات ورحلت بعيداً عن النساء الخائنات وطبخاتهن.

لماذا تجد صعوبة في ضرب ذبابة..؟! لقد بحث علماء أمريكيون في هذه القضية - حسناً؛ لو لم يكونوا أمريكان ستجادلون بالموضوع ويطول الحديث - وتوصلوا بكل الأحوال إلى أن دماغ هذا الشيء مبرمج لتفادي الضارب مهما كانت أداته، فعند أقل شعور بالتهديد، تعدل الذبابة وضعية ما قبل الطيران، بحيث تطير في الاتجاه المعاكس، لتضمن هروباً أمناً. تتم العملية بسرعة كبيرة في ظرف00 2 من الألف من الثانية حيث تكون الحشرة في حينه قد حددت مصدر الخطر، وقامت بتفعيل مجموعة من الحركات المناسبة لجهة وضعية أرجلها وجناحيها ومن ثم الانطلاق إلى عالم القذارة السوريالي، تلال كثيرة من الغائط تنتظر أرجلها الرفيعة، رؤوس كبيرة تتهيأ لجولاتها الاستفزازية، حيث لا ينفع النضال مع الذباب أبداً، ثم هبطت ذبابتنا العنيدة في زاوية مكتظة في المدينة حيث يجلس على مقعد خشبي شاب عاطل عن العمل، مقابل الشارع المكتظ بالمارة، يفكر بكرامته المسفوحة على أبواب الناس والشركات الخاصة ودوائر الحكومة الرسمية وهو يبحث عن عمل أياً كان هذا العمل، كان جالساً في مكانه الذي شاهد منه صبية حلوة تركض مسرعة كغزال إلى الوظيفة في هذه الساعة المبكرة من الصباح، كش، أزعجته حرارة الشمس والتصاق الذبابة وراء أذنه، رفع راحة يده الغليظة والمتسخة على طرف المقعد، و(فعس) جسد الذبابة الندي بكل بساطة... انتصر على ما عجز عنه الآخرون، بالصدفة فقط، لم يكن الشاب يعلم أنه يمتلك قدرة هائلة على الإطاحة بالذباب بسرعة تعد قياسية في حال نظمت غينيس سباقاً لـ(فعس) الذباب، وهو الرجل الذي استحم ليلة البارحة بصابونة (العشر ليرات) ثم إن مثل هذه المهارات لن تفيده في سيرته المهنية بشيء، لذلك أبعد فكرة أن يضعها في السيرة المهنية، ولن تضيف إلى بطولاته، لذا لن يحكي للشباب أية بطولة؟! غيره يتبجح في كل سهرة بمقدرته على نشل أشد الرجال حرصاً على جزادينهم من جيب البنطال الخلفي

والأمامي كذلك، ولأنه لا يتذكر أصلاً ما حصل له في السنوات الخمس الأخيرة، لـن يتذكر أنه قتـل ذبابة في أقل من الثانية صباح هذا اليـوم العادي جداً، ولا شيء يستدعي التفاخر، ولماذا لا يستطيع الآخرون ضرب ذبابة؟! ربما لأنهم يركزون في حركات جناحيها، والأفضل أن تدعها وشـأنها لتدعك وشأنك بدورها... ذبابتنا الشـهيدة خانها ناقوس الخطـر، ولاقت مصيرها المباغت، ماتـت كحشرة فضولية لا أكثر، وقبل أن تُدهس غدراً بكف الشاب العاطل عن العمل، كانت تنظر بطرفي عينيها إلى هيئته العملاقة، ويبدو لها كواحد من تماثيل الإغريق المتقنة الصنع بشعره الملتـف، وكتفيه الشاسـعتين، حكيماً وهادئاً...، لكن قوي أيضـاً. ولو لم تكن ذبابة كانـت سـتتجرأ وتقـع في غرامه! هكذا قُتلت ذبابة ظنت نفسـها طائـراً حراً يزعج سماء الآخرين في أقل من دقيقة على يد شاب أسمر يمتلك موهبة استثنائية في قتل الذباب.

عزيزي حبيبي السابق



أبعـث إليك برسـالتي هذه في الوقت الـذي يكون قد ذهـب معظمهـم إلى العمل عندكم، بيد أني أكتب إليك من البلاد الباردة...

هذا ما أوحى به رمز يشـير إلى مغلف رسالة ظريف في الأعلى، حقاً لم أعتد على المراسـلة، بل كانت الذبذبة سـلبية معظم العمر، تصل بشـكل يناقض مصدر النيـة، هكذا يهدر الكلام أمامك، وهكذا أهدره بدوري مع نفسي في مترو الأنفاق النظيف، ولن أتعلم قط فن الرسائل.

عزيزي حبيبي السـابق، ما أرغب قوله في رسـالتي إذا ما كتبتها يوماً ما إني وقفـت أنتظـر السرفيس عـلى الرصيف أكثر من عـشر دقائق، وبالفعـل مر سريعاً

سرفيس مزة جبل - كراجات، أيضاً الدوار الشمالي... ثم طالت فترة انتظاري وأنا أراقب الوجوه داخل الحافلات لعلك استقلّيت الآن أحدها... وما الذي يمكنني فعله إذا رأيتك الآن في السرفيس؟!، ليس أكثر من أن أنظر إليك نظرة عاتبة لا يكترث لها الركاب ولا أنت أيضاً.

كما أن وجهك الذي أعرفه لن يتغير. حسناً؛ لقد قلبت صورك الحديثة على صفحتك على الإنترنت، وصدقني لم يتغير وجهك الذي كان صغيراً عندما التقيتك أول مرة، ثم صار أكبر من عيني، لذا قررت أنا الغياب، لكني سعدت حين لمحت تلك الشعيرات قد نبتت من جديد فوقه... شعرك الذي كنت أحاول تمزيقه بامتنان حين أمارس الحب معك.

أرغب في إحاطتك، علماً بأن تلك الطرقات التي مشيت فيها وحيدة في الليل أفسدت خطتك المحكمة في الكتمان، وقد وشت إلي بخطواتك القديمة عليها، الحنين الذي لم أتخلص من شوكته بعد... حتى في البلاد التي تشغلك حضارتها.

يقولون في الرسائل إن للذكرى ناقوساً يدق في عالم النسيان، وللذكرى أيضاً فعل السحر الأسود، ذاك الذي يأمر شياطين الماضي بأن يجعلوني أقفز من مكاني الآن لأبحث عن رائحتك في أماكن السهر الجديدة في المدينة.

ومن ثرثرات العابرين الثمالى، أتأكد بنفسي ما كنت محقة به على الدوام بأن يستحيل على هذا المقهى أن ينال إعجابك، وستفضّل للأبد التسكع هناك، وهنا ليس هناك، أخيراً.

هنا الآن، في أماكن السهر الأوروبية والشقة التي تشبه بيوت الأطفال فتاة قد أثقلت عليها الفوضى، وتكتب من تحت ركام الأوراق وفناجين القهوة وثياب البارحة. فتاة تختلق معركة مع الجميع حتى تبكي براحة ضمير دون أن يسلبها

أحدهم حق الدموع بحجة قوة الشخصية. فتاة وقفت في الساحة تصطاد فحلاً كما يجدر بها أن تفعل وهي في الرابعة والعشرين، ثم، ومن دون قصد منها، أعجبتها أنت! أية مهزلة هذه أيها الحب؟!

عزيزي حبيبي السابق، مرّ أحدهم وقد سأل عنك وعن الأولاد وفيما إن كنت بحاجة لخدمة أو رزمة من المال أو حضن عاجل...؟ وأجبته بأن: يعطيه العافية، كما أني أقدر خدماته، لكن الجار أبو محمد لا يقصر مطلقاً... تخيل أن أذكر هذه الأمور في أول رسالة أكتبها إليك من الغربة.

لكن مررت، اضطرارياً، على أجساد اعتادت على أجساد ثم ذهبت... نحن الأجساد التي خرجت لتبحث عن ملامح الأجساد في الآخرين، ليسنا أكثر من أجساد اعتادت على أجساد... ويسرني للغاية أن أحيطك علماً....

قبّلوك مرات على شفتيك، وبعض القبل لم ترضك البتة، وشهدوا بأنفسهم وحشيتك على السرير، داعبوا خصلات شعرك أنت، لعقوا أصابع قدميك أنت ، ووقفوا طويلاً وراءك يفكرون بماذا تفكر؟!... لقد وقعوا في غرامك دون أن يتنبهوا، وشعرت أنا كما في حينه، بالزهو. حتى قال أحدهم: غريب، تملكين شهوة الرجال المحاربين؟!

وقال أحدهم: ماذا لو ألقيت التحية عليه، فقط، هاتفياً؟ فكرت أني ربما سأصفعك، وأنعت أمك بما لا يليق بالنساء، أو أكتفي بالنشيج وأسألك، كما في الماضي، أن تنام معي حالاً، وتعالج انتفاضي بكل الثقل ولا تترك صدري معرضاً للهواء!

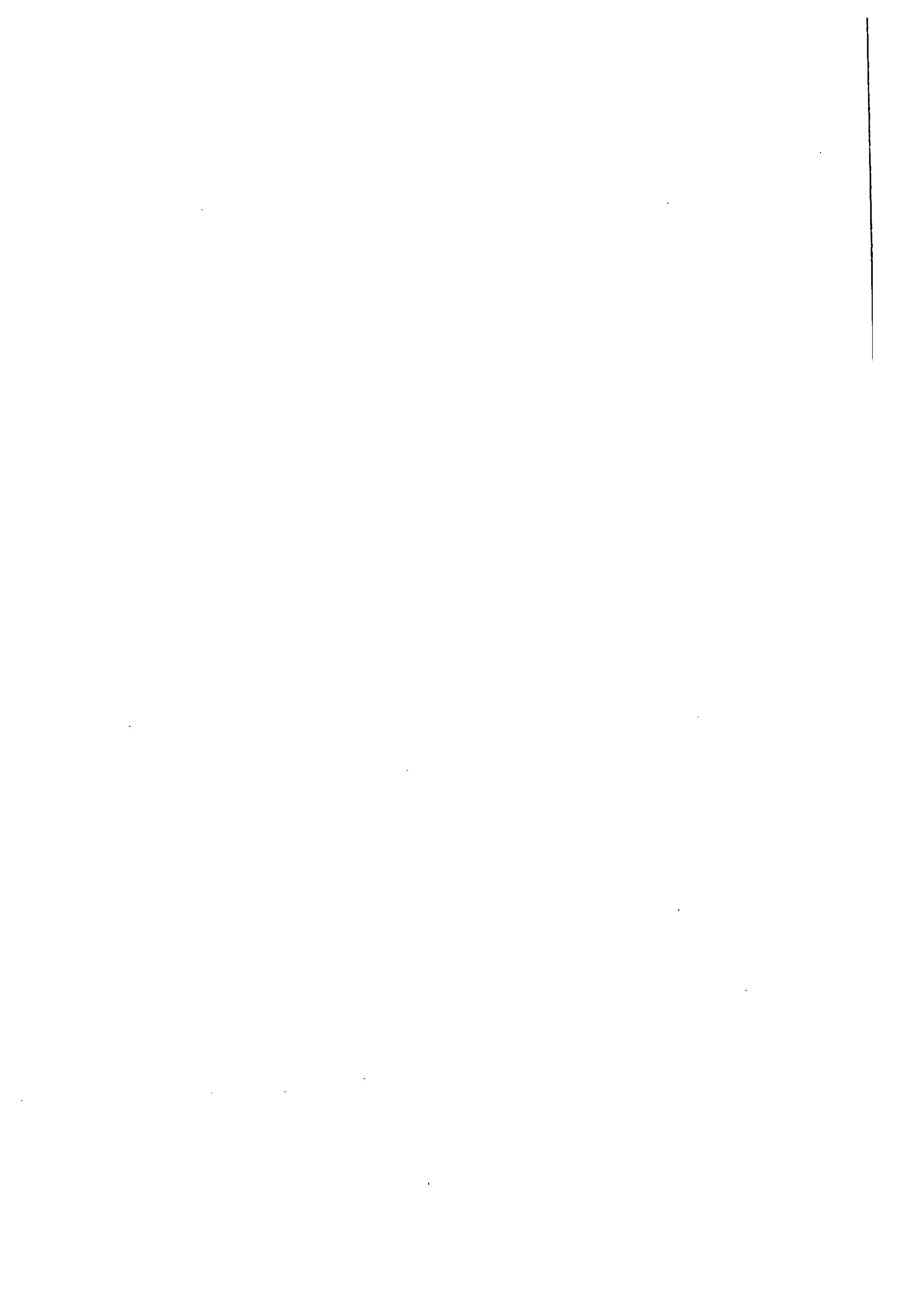
العزيز الحبيب السابق، كما يكتبون في الرسائل، حدث في الواقع أن دعيت أحد الأصدقاء في غيابك قبل أن أسافر إلى كأس بيرة صافٍ في الباب الشرقي عند صاحبك الأرمني؛ ذاك الذي وضع طاولتين أو ثلاثاً على الرصيف... والحنين كان

نيـة مضمرة هذه المـرة... هو لبى الدعوة واتضح لي أنه من سـلالة الأجسـاد التي اعتادت على الأجسـاد بجدارة، كان يتخيلها أحيانـاً معي وكنت أتخيلك معه رغم أني ظننت أنني.. أنك...

لا يهـم. ومـا يهم، أنه كان قلقـاً حول مصيري العاطفي وأنـا أتبنى الوحدة بكل شـغف، ثرثرنا شـيئاً، قهقهنا شـيئاً، وأكلت أنا صحن الجزر أمامي بأكمله... وأسرّ إلي بأنـه يملـك أمـلاً بحجم ذرة في لقائهـا... وافترقنـا كلاً إلى سرفيس وقد أخبرته أنه يكفيني الحنين. ولا تخشـى من النوبات الطارئة، سأحاول اتخاذ التدابير الناجعة، كما ضحك على كلمة ناجعة...

كما في الرسـائل، أكتب لأقول: أكتب إليك من بلاد بعيدة في الوقت الذي رجع معظمهم من العمل من ليلي الغائم هذا...

الثقافة الشعبية



انتهى الجميع من وجبة الغذاء الغنية بفيتامينات القهر وألياف تتمزق على باب المعدة، و(فيتامين سي) كذلك الفيتامين السري الذي يحث إلى السعي الأزلي نحو بروتين حيواني بكامل دسمه، وبهائه العضوي على بساط الألوان الفاقعة هذا، بهاء اللحم ينز بهجة الأيام القادمة، حينها ستتذكر العائلة كم كانوا يشبهون البشر آنذاك. بعد أن نُفضت الصحون تماماً، رُميت على المجلى مذلولة بالبياض المباغت. وجلست العائلة تشرب شاياً أسود بسكر بني محروق. فردت (نزيهة) ساقاً سمراء منتوفة بعناية، بينما طوت الأخرى جانباً وبانت أطراف الشلحة الصفراء من تحت قميص النوم. وبعينين غائمتين رشفت الرشفة الأولى وتابعت الحكاية التي جعلت

من البنت التي تسكن في حي المهاجرين، والتي جاءت من أجل خبطة صحفية عن الأحياء غير الصالحة للعيش، تغص بحبات الرز المكسورة:

رغم كل شيء يبقى أخي، والدم لا ينحلّ كالسائل في عروق حبة البندورة، لكنني أخشى الطلاق. ذعر أبناؤها من النبرة الغامضة التي تفوهت بها الأم.

مجد ذو الأعوام الخمسة أدار رأسه نحوها، كان يشاهد قناة (غنوة) الفضائية، لكنه عاد مجدداً إلى كتابة قاموسه الجنسي الناشئ مع نساء قرويات الأصل، يرتدين الجينز الضيق للغاية كأحوال نزيهة التي لا تسر. تابعت الحكاية وكان من المفروض أن يكون جواباً على سؤال الصحفية: مرةً دخل من الباب، كان سكراناً ومبتلاً للعظم بعرق (البطة)، ثم صرخ: حمودة منعني من قيادة السيارة، يظن أنني ضيعت.. لكن قلت له: أمك المضيعة. تخيلوا، يتفوه بهذه الكلمات أمام زوجي. تقول المرأة بحسرة...

حينها فزّت أمي من قيلولتها: حسين، اكسر الشر وابتعد عن حمودة.

وزوجي الذي كان ينصت بهدوء إلى صراخه، توعد مهدداً بأن رأس الولد سيتدحرج أمامه إذا ما حمودة أساء إلى خاله الثلاثيني هكذا دون أسباب. وبكى الفتى (يا عيني) دمعاً بحجم كف اليد، قال للجميع وهو يحلف بقبر جده إنه يخشى تحطّم عظام الخال إذا تحطمت السيارة، لأن الفتى صغير لا يعرف أنه في الهاوية أيضاً، بكى وهو يشرح لأبيه الأمر. كان خائفاً حينئذ على روحيهما من الطيران نحو الهاوية، لكن حسين شعر أنه فقد زمام أكاذيبه اللعينة وهجم على أمي يريد تهشيم وجهها المجعد، ثم صرخ كمسعور: أمي، والله لاقلع عيونك والله... والتيار الكهربائي هو الذي انقلع لأن شبح التقنين هبط فجأة على بيوت الحي في أطراف العاصمة، وصارت يداه تخبطان عشوائياً، يخمش الهواء يائساً ليلتقط مقلتي الأم بأصابعه العشرة هكذا!... هكذا يا آنسة يرغب بفقء عينيها العسليتين، لكن

حسين التفت وراءه ثم هجمت شياطينه المتربصة به وراء شراشف الظلام الزهيدة، كان يُخيل إليه أن ثمة من يناديه: أنت لا شيء.. أنت لا شيء.. أي، أي، لا شيء.

لكماته القوية كانت من نصيب خاصرات الأطفال المذعورين. قال ولد ضاحكاً: وأنا ضربني خالي على خصيتي، هنا يا آنسة، وأشار إلى مابين ساقيه، وضحكت (توتة) مزقزقةً وهي تمسك بوردة صفراء، وتضع نظارات شمسية باللون البنفسجي تحت سقف الغرفة التي شهدت فصول معارك الأخ الثائر مع نزيهة التي يزورها مراراً وهو يحمل في جيب حبوب الهلوسة وفي الجيب الآخر ويسكي رخيص الثمن. تضيف نزيهة: لكن أمي استطاعت أن تفلت منه، هرعت إلى مخفر الشرطة في رأس الشارع، لحسن الحظ أن المخفر قريب جداً من البيت! ارتدت المانطو بالمقلوب وحذاء ابراهيم الأسود، ولولت أمام حزام حارس المخفر، اسجنوه.. الضال السكير.

لو رأيتم إيشارب جدتي مربوطاً رأساً على عقب... قالت الطفلة وقلبت على ظهرها وهي تضحك.

لماذا يفعل حسين كل هذه المصائب؟ سألت الصحفية: هل جربتم أخذه إلى مركز للتأهيل، أو زيارة طبيب نفسي على الأقل؟ نظرت نزيهة إليها وهزت رأسها ثم رشفت الرشفة الثانية: ماذا نفعل؟ قضاء الله وقدره، لكن اسمعي، هذه القصة ستعجبكِ يا آنسة، اكتبيها في المجلة، مرة دخل حسين من الباب، كنا نتناول الغداء: فاصولياء و أرز على ما أعتقد، طلب من سوسو أن تُحضر له كأس ماء، ثم لقف حبة زرقاء بهذا الحجم، أشارت إلى نصف ضفرها، وأسقطها في بطنه، لا أدري ماذا تدعى: فولان، فولانتين، فالتين... قال ذو العشرة أعوام مصححاً: ماما، يدعى فالتان وهو دواء مهلوس يا آنسة! صفعت الأم ابنها بقوة: لا تقاطعني أثناء الحديث. لا يهم، وما يهم أن حسين خرج ساعة من الزمن وعاد معفراً بالتراب

وهو يقسم بأن سيارة البلدية التي استثمرها ابراهيم قد اخترقت جدار محل الورود في الشارع العام، وحمودة يسأله، إن كان يقصد سيارة ابراهيم الأخرى التي يعمل عليها أيضاً؟ لكنه تشنج كعمود خشب ولطم وجهه قائلاً: أقسم لك إني... ربكم! شهقت (نزيهة) فذعرت الصحفية، ثم تابعت المرأة:

يومها دخلت على رؤوس قدميه إلى غرفة النوم، وابراهيم كان غافياً للتو، قلت له: هل ذهبت بسيارة البلدية إلى الميكانيكي؟

لا سأذهب في المساء...

حسناً إذن... حسين حطم حافلة البلدية الخضراء ويقول إنه... ربك يا ابراهيم!

انتبهت نزيهة إلى كأس الشاي الفاتر بين كفيها، وشربت منه، بينما كان الأطفال يضحكون بهستيرية وهم يحدقون بالوجه الأنيق المبهوت وسط المكان.

أما حسين فقد فر إلى عباب الأبنية الكبيرة في العاصمة على دراجة نارية يقودها عابر أسمر، وأكوام الورود نثرت فوق أكياس القمامة، شمت توتة وردتها الصفراء: يا خسارة كان أجمل محل ورد في المدينة! زقزقت بطوننا ثلاثة أشهر، متنا من الجوع والغربة، شحذنا ثمن ربطات الخبز وكمشات السكر يا ابنتي، جاء كل أقارب زوجي وتفلوا علي، وداس أخو إبراهيم الصغير بحذائه على خدي وهدد بفناء أهلي واحداً تلو الأخر، وإبراهيم خلف جدران السجن، وماذا نعمل مع حسين؟ لا ندري! أخذوه مرة إلى مركز للعلاج من الإدمان... والله يا آنسة إن مركز التأهيل رفض وجوده في المبنى النظيف لأن نسبة الكحول في دمائه لا تؤهله إلى مرتبة الإدمان، قال: عودوا حين تطوف دماء حسين الكحولية تلك الأحياء الساقطة إلى الجحيم، حين يقلب البيوت التي تنزف، أطفال عراة يتقافزون فوق المجاري المكشوفة، ويجرف العاطلين عن العمل من الزوايا، وسيديات أفلام

البورنو، الخضار الذابلة، عودوا حين يسفح حسين هذا صدره المسموم أمام كل الناس، حين تتمزق روحه المتفحمة كأشلاء الأثواب التي تلبسونها، ما الحل؟! ماذا ستفعلين نزيهة...

سأنتظر عودة أخي، سيدخل من الباب بعد أسبوع أو أكثر.

وأنا لن أعود. ركضت الفتاة إلى الخارج ولم تلتفت إلى النداءات من ورائها: يا آنسة... يا آنسة، إلى أين؟ بكت بألم غريب. لقد كانت تشعر بأنها في القبر، ركضت بأقصى سرعة وهي تلعن رئيس التحرير، مبتعدة عن سحارات الباذنجان المتعفنة، والنسيم الفاسد، والوجوه الحزينة والفقر والجهل والأزقة الضيقة للغاية كضيق العيش.



انتهاك المملكة

البلاغة في زيارتها الأخيرة

تهيأت الملكة للخروج إلى الشعب المتعطش للرؤى الخارقة والشهقات، شعبها الذي فقد أحلامه دفعة واحدة في معركة اللغة الأخيرة، فأدمن الاحتلام بها بشدة، المعركة التي انتصر فيها ثلة من الصبية الصغار، شباب اختصروا الثياب التي تليق بالمعارك عادة إلى سروال جينز وقميص قطني، جاؤوا غزاة أشبه بالهمج على أحصنة متطورة بأجهزة حاسوب حديثة فائقة التكنولوجيا أيضاً.. تأتي أهمية هذه الزيارة تأكيداً لفعالية السلطة التي مُنحت إليها من قبل الشعب الوفي كما جاء به الشريط الإخباري، الشعب الذي يقطر علامات استفهام حين يتعرق، ويأكل طبيخاً بالسمن العربي الأصلي.. وكحال الملكات اللواتي مررن في الأزمنة الغابرة

المعفّرة، كلفت الناطق الرسمي للقصر بالإعلان عن سبب الزيارة ألا وهو الاطمئنان على أحوال الرعية ومنسوب الذخيرة البلاغية في دمائه العربية النقية.

تقف أمام المرآة، تضع مكياجها الباريسي الفاخر. عينان يخطهما الكحل السرمدي بلا نهاية، عينان كبحور تموج بدول العالم العربي؛ بحور العتمة التي تغرق في عبابها النوارس، بحور الطويل، بحور الكامل، بحور البسيط، بحور الوافر، بحور الخفيف، وغيرها... وضعت (الماسكارا) الـ(أور جينال) للغابة الممتدة على مشارف الشمس الذهبية، ارتدت فستاناً مزركشاً من ماركة: «الرمال ترتدي لون الرحيل»!!. شدّت الثوب جيداً على الجسد البض الذي يروّع غيوم الهرب تحت أمطاره السخية! شدت الفستان إلى الأسفل بأنامل رقيقة بمنتهى اللطف، أصابع لها حضور ربيع مزهر يطل على الشرفات كسرب حمام! من ثم حشرت قدمها في حذاء.. وعصرت من كنه الشهوة الحمراء الحارقة بلسماً عسلياً على الشفاه الوردية! يعني وضعت أحمر الشفاه! -وبالمناسبة، لا أعلم لماذا التشبث بهذه الكلمة خاصة بعد اجتياح ألوان أخرى (للروج) منذ زمن بعيد- آه، ولم تنس الملكة بالطبع أن تضع إكسسوارت أخيرة من نوع تشبيه بليغ كالعقد الفاخر على النحر الأبيض، الذي تستوجبه المناسبة عوضاً عن العقود الأخرى من تشبيه تمثيلي وتشبيه ضمني، وهذا الذي لا تعرف الملكة كيف تضعه، عقد التشبيه المقلوب! وخاتم الاستعارة وهي تملكه بكل تأكيد ولم تستعره من أحد، كما تملك في علبة المجوهرات أقراط الكناية المتدلية برفق، وملاقط التورية الظريفة للشعر، وأخيراً وضعت تاج الدلالة الأثري على رأسها، وخرجت في موكب ضخم. وفي الحال توافدت الحشود من كل جانب، رفعت الأعلام البراقة في مقدمة الموكب، وصدحت الأبواق إيذاناً ببدء المسير، كانت الملكة غاية في الروعة، عصية على الوصف وهي تجلس على الهودج الذهبي يتناثر من حولها فرسان المملكة: على

يمينها الفارس الأول (الجناس) المتصالح مع ذاته جداً، وتوابعه على التوالي: الطباق، المقابلة، التضمين، التشطير، الاقتباس، وأخيراً الفارس المعروف برقته المتناهية: حسن التعليل. على يسار الملكة البلاغة كان هناك الفرسان الشجعان: كناية عن صفة الأول، وكناية عن موصوف الثاني.. هتف الشعب للموكب وأطلق عبارات على شاكلة: تعيش الأصالة للأبد، بالروح بالدم نفديكِ يا بلاغة، عاش التراث للأبد، يحيى الفولكلور... بعد ذلك ماج الحشد واهتاج وبلغت أحاسيسه المضطربة من الفرجة التي تخطت كل حاجب، الفرجة الإلهية، ثم استجابة لكثافة المشهد ربما أطلق بعضهم تأوهات جنسية ملتهبة! والموكب يخترق الحشود بكل هدوء، لوّحت الملكة بكف متثاقلة من جراء الخواتم التي تزدان بها أصابعها، لوحت بلطف بالغ للرعية، وهي تنوس بعينيها، تبتسم برضى تارةً وأمومة في أحيان أخرى ، الابتسامة النبيلة هذه دفعت بالأحمق الذي فقد السيطرة على غرائزه كلياً إلى تغيير التاريخ لصالح مابعد الحداثة... ففي لحظة تجلٍّ خرقاء اندفع من بين الأكتاف بكل قوة، وسط الضجة وهتافات الشعب وأصوات الطبول واقتحم حرمة الموكب، تسلق الحصان حتى وصل للمجد، خاطفاً ثغر الملكة بقبلة سرمدية... فجأة ساد صمت رهيب امتد إلى مشارف المملكة كلها، توجهت الأنظار إلى وجهها وقد ارتبكت واشتدت حمرة وجنتيها.. ثم كسر الصمت أحدهم: لم يعرف بعد، التحقيق جارٍ على قدم وساق حتى تنتهي الأزمة، قال بصوت عال: يا لفم الملكة التعيس!! حين لحس المهتاج كنه الشهوة الحمراء كله لحسة واحدة عن شفاه الملكة البلاغة كفجعان، ظهر فمها الكبير والمشروط بشساعة الأراضي التي تحكمها من الأذن اليمنى إلى الأذن اليسرى! فم كبير بلا زوايا واضحة، وشفاه غليظة منفلشة. أدرك الشعب الحقيقة، وهو يريدها أسوة بالشعب اللبناني. ومن شدة الحرج أطلقت المرأة المسكينة ضحكة ساخرة

أكدت قبح الفم، وهي تظن أنها تحسن الموقف وترطب الأجواء فاستفزت ضحكتها هذه التي لها صوت قهقهة حمار الري حين يستجيب لدعابة فلاح ما، رجلاً آخر وسط الحشود فصرخ: العمى! وتضحكين؟ قالت الملكة وهي تتوسله برجاء بالغ: انتظر بحق الآلهة، تأمل معي بلاغة المكان. قال: اخرسي. أطلق الناس شهقة عالية كالتي يطلقها الجمهور الكومبارس في برامج الفضائح العائلية التي تعرض في أميركا، ركض الرجل نفسه، صفع الملكة صفعتين وشق فستانها الرائع ماركة «الرمال ترتدي لون الرحيل» وسحبه إلى الإسفلت. بانت حمالة النهدين من نوع (أسيل) المحشوة بالإسفنج، والتي تستند على أقواس معدنية لرفع الصدر، وإذا بالأثداء الجافة تنجلي بوضوح للشعب، الأثداء المكرمشة، والهزيلة بحلمتين سخيفتين للغاية، الأكتاف الناتئة، الذراعان القصيرتان... وكان الناس يظنون أن البرق يعلن عبر ظل النهدين نهارات الشوق الناقصة! الحلمة الزرقاء جعلت الفرسان أول مقتحمي مملكة الجسد. هتف أحدهم: من يرفع غطاء الشهوة لينكشف هذا الجسد! قال آخر: أين الصباح ينسكب عارياً في غابة أصابعكِ، أين الأصابع يا الله؟ أين الصحو يرتوي من عينيكِ، أين الأنوثة الرهيفة التي دفعتنا إلى معركة لا تستحقينها يا مخادعة...؟ صرخ ثالث: أين هي مملكة الجسد يا جماعة...؟ بشرفي، إن هذا جسد بنت في الصف الخامس الابتدائي وتعاني من نقص الغذاء أيضاً!

تحطم الموكب على رأسها في انقلاب بربري ماجن، وسحبت المرأة من شعرها في شوارع العاصمة، تناثرت إكسسواراتها في كل مكان، ولم يسعفها الفارس كناية أبداً، ثم قذف بها الشعب الذي ما انفكت تصفه في خطاباتها في المحافل الدولية، بالنبل ومكارم الأخلاق، قذف بها بعيداً في واد مظلم وبارد.

حصل هذا منذ زمن سحيق. لم تُذكر الواقعة في كتب التاريخ كعادة المؤرخين. وفي أحد الأيام مر مستشرق بريطاني على أرض بور في المملكة التي تغيّر نظام حكمها بعد حادثة الانتهاك مباشرة، حيث باتت تعرف بمملكة «الحداثة السعيدة» وقد سنت القوانين الديناميكية... وهي، الآن، تنعم بالطعام الصحي ونظام مرور رشيق وحرية صحافة وخضراوات أكثر إنعاشاً. وضمن احتفال ضخم تم نسف تمثال المعنى الذي كان يتوسط أهم ساحات البلد... كما تم تشجيع المشاريع التي تحمل طابعاً ما بعد حداثوي... لكن المستشرق استغرب جداً من مشهد لا يتوافق وكل هذا التطور! حيث رأى أن المشهد ينطوي على أكثر من نشاز، فهو كرجل بريطاني يستطيع التقاط مثل هكذا أخطاء فادحة: امرأة عجوز دميمة تجلس تحت شجرة يابسة علقت عليها الخرق بألوان متنافرة، يلتف حولها الجذام ومدمنو المخدرات، وهي تحقنهم بالأفيون من وقت لآخر.. ثم يبدأ طقس راقص غريب، تبدأ المرأة العجوز بالتمايل مع اتجاه الريح، ولولا أن المستشرق لم ينبش علمياً في الحكاية، ويبدأ بمراجعة كتب اللغات القديمة، ما علمنا أبداً أصل المرأة الملكي إلى يومنا هذا...

السيرة الجنسية لصديقنا الشاب



يعرف فرويد صديقنا الشاب، لكنّه كما أعتقد سيسعد بشدة حين يتأكد من نظريته الخالدة، ومن أن الإنسان لا يفكر سوى بما بين ساقيه، ولا شيء يشغل ذهنه أكثر من مؤخرة باهرة. ولا عجب في هذا لاسيما أنه، أي فرويد، كان متشائماً في رؤيته للحضارة، لأن تطورها حسب رأيه، يؤدي بالضرورة وبشكل متزايد إلى قمع الناس لغرائزهم الجنسية، وذلك لأن نمو الحضارة يعتمد بالضرورة على عملهم المتزايد، وبالتالي عليهم أن يتعلموا ضبط غرائزهم، وتأجيل أو إلغاء تلبيتها لفترات طويلة، ما قد يؤدي إلى اضطرابات نفسية وشعور بالخواء والقنوط. وبذلك فإن الحضارة عند فرويد تؤدي لا محالة إلى الاغتراب والتعاسة. لقد أثبتت

تقارير منظمة الصحة العالمية نبوءة فرويد، فهي تؤكد أن نسبة الأمراض النفسية، وخصوصاً الكآبة، قد بلغت الآن عشرة أمثال ما كانت عليه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، هذا على الرغم من التطور الكبير الذي حصل مؤخراً في مجال تشخيص وعلاج الأمراض النفسية. سيُسر فرويد كثيراً بعد أن يلقي نظرة متفحصة على ما آل إليه التقدم والتطور في المجتمعات الشرقية، وهنا، في العاصمة السورية دمشق، هاهو يجد ضالته أخيراً؛ فالشاب الذي جاء من الريف المحافظ في إحدى المناطق الداخلية للقطر ليكمل دراسته داخل المعهد العالي للفنون المسرحية (فعل الحضارة) يشكل نموذجاً مثالياً لنظريته في الكبت الجنسي، يستمر في التخبط بين جسده وثقافته بشكل مبالغ فيه هذه المرة، بالتزامن مع الظروف الاقتصادية الخانقة الأمر الذي يجعل (ماركس) يغوص في كرسيه وهو يلعن تركيبة البشر. وإذا كانت الأسس الثلاثة التي تركز عليها المدرسة التحليلية هي: الجنس - الطفولة - الكبت. فهي مفاتيح السيكولوجيا الفرويدية أيضاً، ولنبدأ بالطفولة، والتي هي مرحلة بدائية للكبت الجنسي: لم يكن الشاب المسرحي الواعد سوى انعكاس لمنظومة كاملة من التخلف والجهل والعقد الغامضة، وصاحبنا فرويد يقول في هذا الشأن إنه في مرحلة الطفولة تشتد الهجمات الخيالية، والتي يراد بها إخفاء فاعليات العشق الذاتي، إذ تتضح لديه الجنسانية من وراء الهوامات أو (الفانتازم). الطفل الواعد في هذه الحالة كان يحلم أحلاماً سرية عن أنثى ترتدي جلابية أمه، وتشبه الممثلة الشهيرة (سهير رمزي)، تقوم باستدراجه ليلاً إلى غابات الزيتون، تفرك ظهره بالليفة، ثم تداعبه بشكل غامض بالنسبة إليه. وقد تم القبض عليه من قبل الأخ الأكبر يمارس العادة السرية على سطح البيت، ما سبب للشاب نوعاً من (الدفع) كما يدعوه فرويد. فهو، إلى جانب الأفعال الإرادية التي تعكس الأمنيات والرغبات، باتت تصيبه بعض الأفعال العارضة الخارجة عن إرادته كأن

ينهي علاقاته العاطفية بشكل سريع إمعاناً في الكبت القهري ربما، أو استجابة لرغبة شديدة في التمسك بأي أنثى تمر في حياته. المرحلة الثانية: الليبيدو، ويفسر باختصار بأنه الدافع الجنسي. فهو، أي الطفل الذي كبر وصار شاباً يدرس المسرح، إذ يأكل أو يشرب، و يلطش أفكار زملائه، يختزل قراءاته في كتابين أو ثلاثة، و يعقد مواعيده الغرامية في الأماكن الأشد رخصاً في العاصمة، حتى في استعراضه الفكري أمام أي بنت على الطاولة يقع تحت سطوة الدافع الجنسي، فالجنس هو النشاط الذي يستهدف اللذة، إذ يصبح الأداة التي تربط الشاب هنا بالعالم الخارجي. هكذا يطبق الشاب الذي دخل الآن الثلاثينيات من عمره مبدأين هامين لدى فرويد هما اللذة والواقع، فالإنسان يتجه بطبيعته نحو اللذة العاجلة لمباشرة الرغبة، لكنه يواجَه بحقائق البيئة المحيطة به، ومن ذلك المتطلبات الاجتماعية كالزواج. يعتقد الشاب أخيراً أنه سيفلت من فخ الزواج، بذريعة الخدمة العسكرية، وإذا بالفتاة تبدي رغبة صادقة في الانتظار، فيعمد إلى التهرب، وإلى تجنب اللذة التي سببت له ألاماً أكبر منها أو يؤجل تحقيقها. وفي محاولة مكشوفة للالتفاف على القفص الذهبيّ شوهد في الآونة الأخيرة يواعد فتاة جديدة، ولكي يجد لسلوكه تبريراً فكرياً عميقاً ابتدع نظريته الخاصة التي لم يسمع بها فرويد، فصديقنا الشاب توصّل إلى أن كونه من منطقة داخلية يجعله بحاجة إلى فتيات من المدن الساحلية حصراً.



بلُوَز

ما الذي ترتديه اليوم؟

تأمره أن يجيب الآن، رغم احتجاجه.

أنتِ لم تختاري الوقت المناسب على الإطلاق.

أنا في (الديوان) يحيط بي ذكور من النوع الذي، ربما، مازال يعتقد أن الرومانس أكلة فرنسية من الطراز الرفيع، شيء ما يشبه فتة المقادم..

ثيابه.. سراويل الجينز التي لا تلصق على خصر الرجل أبداً بألوان غامقة حصراً.

يلقي ببنطاله، بكسل، على الكنبة أمام السرير. يتأمله مطولاً قبل يتجه إلى المطبخ لتحضير وجبة ما. ثم يفكر في مكابداته بانتقاء ما يناسبه منها كذلك، وهو

يغوص كدودة ضئيلة، في بسطات الطرق. يبدو أنه الوحيد الذي اقتنع أن البضاعة قادمة من تركيا، وأن السعر يستحق هذا التعب فعلاً. يتجهم وجهه، يكتئب ثم يخرج يائساً...

كان يبحث عن سترة لا يشعر بداخلها أنه في صفوف الخدمة الإلزامية مثلاً، كما يبوح لها أحياناً.

ثيابه.. ثياب الرجل...

البلوز، وتلك التي استعارها من الأصدقاء أيضاً.. الخضراء، الصفراء والتي بدون ألوان لشدة ارتدائها، تلازمه حتى إلى النوم! بكامل أناقته يغفو. وحده الحذاء البالي يتخلى عنه، ينزعه من قدميه المتورمتين، وفي سفر الليل يقرر أن يمشي حافياً في شوارع هلوسات ينسى معظمها عند بزوغ الفجر، لكن مشهد وقوفه عارياً تحت ضوء الشارع يظل يؤرقه كثيراً في النهار التالي كعادته، غالباً ما يغفو ثملاً مع صخب الباص الأخضر العجيب، ودخان سيارات الأرستقراطيين، ينام مع رائحة إبطيه النتنة، ثرثرات مقهى (الروضة)، الخلافات الفكرية مع رواد (نينار) ومحفظة نقوده البنية...

تسقط الليرات من جيبه وتنتشر بين الملاءات، لكم تفاجئه البهجة على وجوه بعض الفتيات اللواتي يزرن غرفة نومه، تلتقط إحداهن خمسين ليرة من تحت الوسادة أو خمسة وعشرين ليرة أسفل الحذاء وتمضي.

يسأل نفسه: لماذا يحتفين بالفراطة هكذا..؟! النساء يعشقن الخردة، حقاً!

حتى إنه اضطر مرةً إلى صفع صبية خبأت عشر ليرات سورية تحت لسانها وهي تضحك بجنون مستمتعة باللعبة... ثم خرجت من بيته غاضبة بشدة، كانت قد بصقت القطعة المعدنية في وجهه، بعد أن وجهت له لكمات، في حين اهتم هو بمعالجة آثار أظافرها على قميصه الذي تمزق، القميص الذي لن يجد مثله أبداً. هكذا

يتحسر على فقدانه، ربما لوقت طويل، لكن لم يتسنّ لها أن تشهد تفجعه عليه، رغم أنها كانت ستصاب بالخيبة لأنها ستشهد أيضاً خياناته الكثيرة وعلاقاته المشبوهة مع الجنس الآخر؛ بكل الأحوال ما زال الرجل، غالباً، يشتكي، لا يجد ضالته حتى في وكالات الألبسة العالمية، هذا لا يلائم سنّه، وذاك يحتفل بالقرباط والغجر، ذاك يشعره بأنه معتقل مرة أخرى! تود أن تصرخ: اختر لك شيئاً من أجل الرب.

وفي لحظات يأسه المريرة يذكر ذاك البنطال الذي ارتداه في موعد معها ظهيرة إحدى الشتاءات الماضية، كان يصل إلى أسفل كعبيه، اخترق فيه ساحة باب توما ومجموعات الشباب في الزوايا، قادماً إليها بتردد.. صديقه نهب الخزانة قبل أن يسافر إلى البلد، ولم يجد شيئاً يصلح لتغطية هذه العاهات الخلقية، في المرة الثانية التي خرج فيها بموعد معها، شعر بأنه محط أنظار كائنات وهمية تقوّم هيئته العامة، وأن أحداً سيمر لينظر إليه شزراً.

كانت هي تقف على الرصيف المقابل...

اقترب منها، نظر إلى بلوزتها القطنية التي كتب عليها «سكريم» (الصراخ): ثيابكِ تصرخ إذن. هل تعلمين ذلك؟! رغب أن يقول، لكنه تلعثم، واكتفى بإلقاء التحية باضطراب.

فجأة تحوّل إلى عاشق هادئ الطباع ومنصاع إلى حد غريب، مشت بهدوء فمشى مع ظلها، راقب طقطقة الكعب النسائي، اختارت الطاولة، أومأ إليها بموافقته، ثم اختارت شراباً له، فتناول فنجان (كابتشينو) ساخن يمقته، في سريرته كان يرغب، بقوة، بكأس متة دافئ لا تقدمه مقاهي الشام القديمة للأسف، قميصه غير المريح زعزع من ثقته بالأشياء، فقال لها يومها بأنه ربما يريد الزواج منها! ولا يدري كيف تورط بهذا القول إلى يومه هذا. كان الأجدر بها أن لا تتجاهل مثل هذه المواقف، ستحفظ هذا الدرس جيداً فيما بعد.

ثيابكِ ثياب النســاء... بلُوَز فائقة النعومة كأنها تحتاج إلى دليل على أنوثتها، بنطالكِ سـهل الانزلاق حقاً، يظهر كسـاحر كحلي ويختفـي وراء الياب، صندلكِ الصيفي البني وأحاديث الإسـفلت المستمرة فيه، الصندل الذي جاب كل المناطق حتى وصل إلى هنا ما زلت أحبه، البلوز، تقولين عنها إنها تثير إعجاب صديقاتكِ فيسألونكِ عن الأسواق التي ترتادينها حتى تبتاعين هذه الموديلات الغريبة، خزانة ثيابكِ المفتوحة على أكثر من احتمال للرهبة، هذه بدلة لا يرتديها سـوى قاتل، وإلا ما معنى هذه السحابات الضخمة، ومع ذلك تحتفظين بحقيبة ملونة كالتي يملكها الأطفال.

يراهـا جيـداً ثلاثة أرباع امـرأة تلبس أصغر من مقاسـها الحقيقي.. تسـأل مرآتها سراً: لماذا لا يضيق هذا البنطال يوماً؟!

أنا من معشر النســاء، أصحيح ذلـك؟ يراها جيداً في نهارات الضجر لعلها من اللواتي تأخرن في البلوغ، فأُسـعفت بنهدين ضئيلين وجسد من مرحلة التعليم الأساسي.. ومع ذلك يستمر في قوله:

لا تخـبري أحداً عـن المحل.... لأنـك ذكية وماهرة في اقتناص ما يناسـب حجم مؤخرتكِ وما يشـطر جسدكِ إلى سـهول، وتفاح، وهضاب.. . كتلك الذي يجثـم فوقها بيتنا الصخـري في الضيعة، لكن ربما حصلتِ عـلى هذا البطن الصغير المنتفخ في التنزيلات!.

لا تعجبها الدعابة وتقول إنها معجبة بثياب الرجال أكثر.

ولماذا؟

لأنها ذات ألوان صامتة، فلا تجعلهم أسرى للاختيار..

يتهمها بأنها سحاقية، تهمس في أذنه: بل ذاك الشاب الذي لبس كنزة زهرية بلون الدب الصوفي الذي تحتضنه المراهقات في الليل. تضحك بخبث.

لم تنس تفاصيل خزانة ثيابه يوماً: جاكيت الجلد الأسود، الكنزة الزرقاء، والكنزة البرتقالية التي ارتداها في يوم ضبابي أزرق هابطاً من السرفيس الرمادي، صراعه قائم حتى مع ألوان الخارج، يصمم على الاختلاف مع الجو الغائم وتعاسة الدمشقيين الشتوية، تفكر: ماذا كنت ترغب بقوله أيها الرجل؟ رغم فقاعة حضوره في الحديقة العامة، لم يقل كل شيء.

قال لها فقط أنه متعب، ولن يسفح زمناً إضافياً في اللهاث، يحتاج إلى عدة العزلة خاصته.: بعض الكتب وبطانية سميكة، وعلبة مرتديلا واحدة.. ظنت أنه يتماهى مع كآبة مصطنعة، حتى يثبت للآخرين أنه مبدع فريد من نوعه.

ثم طالت كآبته كسحابة ممتدة على طول المدينة، تذكرت لمى وحزنها حين فتحت الحقائب في الصالون، تلك هي الفساتين المشتهاة، أثواب الحب هي لكم يا صبايا.. فتحت عينيها على اتساع وصرخت: لن أرتدي ما قرر أن أرتديه يوماً. وكأنها تعرت من الذكور أيضاً.. الأحمر، الأزرق، البنفسجي، الأسود..

الكنزات الصوفية العتيقة تدفئ عظام صديقتها إلى الآن حتى وهي قادمة من العمل صيفاً وفي كل الفصول، لا تكترث لنظرات المحروقين في الميكروباص.

ثم اتصلت به هاتفياً: اشتقت إليك.

بعد مرور سنتين ونصف اشتقتِ إلي أنا؟ إلي أنا؟!

كانت ستخبره أنها تراه لا يصلح سوى للغياب فقط. لكن صمتت، ثم دعاها إلى بار اعتادا الذهاب إليه.

في الليلة التي جمعتهما بعد كل هذه المدة، كان يرتدي الكنزة البرتقالية ذاتها، قررت أن لا تدع هذا التفصيل التافه يشوش الرغبة في الارتماء على صدره، ماذا تشربين؟!

بيرة مكسيكي، لو سمحت.

أنا سأشربها (بردى) سوري. قال ممازحاً.

وبعـد أكثر من سـاعتين من أحاديث بدت فارغة مـن أي معنى، ودون أي توجه واضح، عن الماضي والمقالب التي ضربت رأسـه يميناً وشـمالاً، شـعرت أنها سفحت جلسة كانت ستأخذ شكلاً رومانسياً على الأقل لو جرت في زمن مختلف، كان بإمكانها أن تؤجل كل هذا الهراء، لكن هذه الأيام غائمة، مشوشة وهي تحتاج إلى نفحة عاطفية ما تطمئن أنوثتها القلقة.

في الصباح الباكر مرت من أمام الحديقة العامة، كان رأسـها الصغير يضج بأحـداث الليلة الخائبة. فجأة، ودون أي مبرر منطقي، فكرت أنها لثلاث سـنوات تمر من أمام هذه المكان، وتمدح سراً ترتيب الأشـجار، والمقاعد اللطيفة. ثم قررت أن تجلس في مكان بعيد عن المارة.

فتحت الحقيبة وأخرجت سيجارة رفيعة بطعم النعناع تحتفظ بها على سبيل المـزاج، تأملـت كل هؤلاء الذين مروا من أمامها في السـاعة الثامنة والنصف. كل هذه الألوان، والعالم ليس عارياً بعد، وحتى هذا العري لا يبدو حقيقياً...

عصفور السيدة الصغيرة المراهق

تقطـن السـيدة الصغـيرة في بيت مشـمس يحتـوي على (تـرّاس) مغطى بسـتائر ذهبيـة فاتحة بخطـوط. خضراء فاتحة، يطل على شـارع هـادئ. في أقصى الزاويـة هنـاك قفص بداخله عصفور ينشّـز منذ الصباح. تنظـر الفتاة في أرجاء المكان، وتكتـب هذه الملاحظات عـلى دفتر صغـير أولاً، كأن العصفور يدرب حنجرته على شيء ما ولم ينته بعد. سأدعو السيدة بـ «الصغيرة» لأنها ذات جسم ضئيـل، وتقاسـيم وجـه ناعمـة للغاية. حسـناً، لن أنكـر، أعلم ما هو اسـمها الحقيقي، لقد ردّدته أمامي صديقة مشـتركة بيننا كثيراً، وهو ليس بالاسم الذي يُنسى بكل الأحوال.

حقيبتها المفتوحة فوق طاولة المطبخ تبدو غالية الثمن، سوداء بمشابك فضية براقة، ممتلئة صحةً وعافية، لكن البطاقة الشخصية توشك على السقوط من فمها العريض المفتوح باتساع، تلتقط الفتاة البطاقة فوراً. السيدة الصغيرة في منتصف الثلاثينيات إذن، دون زوج ، أو أولاد لأزواج سابقين.

مهلاً، تتنقل السيدة الآن في (الترّاس) من القفص البديع الصنعة إلى سلة وضعت فوق الطربيزة في الجهة المقابلة. إنها تبحث عن طعام للعصفور، تتأمل حبوب (السيتامول)، تفكر بإعطائه ذرات حبة، ثم تطرد من رأسها الفكرة في الحال.

فهذا العصفور غال على قلب السيدة، ماذا؟ هاااا تذكار قديم من ابن عم لها، ولا تستطيع المجازفة بجهازه التنفسي أبداً لأنه يؤنس وحدتها بصوته، وتشاطره، أحياناً، هموم العمل والحب والشكوى، وقلة الاتصالات الهاتفية من أسرتها الموزعة في أنحاء مختلفة من العالم، والتي ترسل، بسخاء شديد، الأحذية الإيطالية، علب الشوكولا السويسرية، والماكياج الفرنسي الباهظ، إضافةً إلى كريمات لإزالة الماكياج قبل النوم من الماركة ذاتها، تبعث إليها حتى الوسائد الطبية، حين يصيبها تعب عضلي جراء الجلوس الطويل خلف الكومبيوتر في العمل، تتذكر كل هذه القائمة بسرعة فائقة، بينما لا أقدر على مواكبة تدوين قائمة المنح الهائلة فمازلت في صدمة الشوكولا السويسرية، أعجبتني طريقة تلفظها بالماركات الفرنسية: مثيرة حقاً، وتدل على مستوى اجتماعي معين.. سأذكر هذا في القصة، وحدها الثياب الداخلية التي بعثت بها الأم للسيدة لم تلق أي إعجاب منها أو امتنان. بالعكس، فالسيدة الصغيرة اعتبرت الموضوع إهانة، أو رسالة مبطنة. الأرجح أنها اعتبرتها إهانة، نظراً لأخلاقها الرفيعة التي يشهد عليها الجميع: صاحب الدكان، الجارة الحشرية، والمراهق الذي يسكن في الشقة المقابلة... الكل

يشـهد بالتزامهـا التـام أحكام المجتمـع الشرقي والتـي قد يطلقها عـلى فتاة تعيش بمفردها، وتدور على (حلّ شعرها) الأسود اللامع دون حسيب أو رقيب..

لماذا لم تهاجر السيدة الصغيرة مع بقية أفراد الأسرة عوضاً عن هذه الحياة الحزينة؟ هكذا تكون حكايتي مليئة بالتشـويق! حسـناً؛ نمط الحياة سيتغير، كما ستصبح شـخصيتها أكثـر ديناميكيـة. السـيدة الصغـيرة لا تملـك الكثـير مـن الصديقـات، ولا تخرج مع أحدهم، تقضي سـاعات طويلة تجلـس أمام عصفور غريـب الأطـوار حقـاً، تثرثـر وتبكي ثـم تمضي إلى السريـر، وتصبح عـلى الحزن القديـم. تنظر السـيدة في الهواء، يُخيّل للكاتبة أنها تنظـر إليها مباشرةً. تخيّم عليها سـحابة غـم فجأةً، إنهـا تنظـر إليّ، تراها قد سـمعتني؟! كأنها سـمعت السـؤال وأوشـكت على الإجابـة عليه. تنظـر في الفراغ ثانيةً، حسـناً أيتها السـيدة عليك الابتعاد قليلاً حتى أستطيع الكتابة عنكِ، لكن السيدة التفتت إلى الخلف فأوشك قلبـي أن يتوقف نهائياً، مـن المعيب حقاً أن أتخيل بيـوت الآخرين حتى من أجل أسباب سردية صرفة. هذه المرأة دخلت بابها بشكل طبيعي منذ يومين فقط، ماذا لو اكتشـفت أمري؟ كما لو كانت تمتلك حواسـاً إضافية تساعدها على إدراك من يتخيلها.. يا للفضيحة!

ذاكرة السـيدة تجيب، الذاكرة التي، لـو لم يتعطل صوت العصفور اليوم، لم تكـن ستشـغّل شريط الأحـداث الأليمة أمـام أوراقـي، تزوجت رجلاً مـن ديانة مختلفة المشـهد: كنيسـة كبيرة، تشـعل شمعةً ثم تدلف خلف سـتارة يجلس وراءها كاهن ذو كرش ضخم.. أنا أحب الرّب أيضاً أم تعتقد أنني سـأُغضب مشـيئته من أجـل نزوة. تقـول للبدين: أنا أحب هـذا الرجل، صدقني، أريـد أن أكون زوجته تحت نظر الرب ورحمته وسخطه ونعمته غير المحدودة..

مهلاً.. تجلس السيدة على الحافة.

لماذا تفكرين بي الآن؟ تقول بصوت عال وتكشف كل شيء دفعة واحدة، أعتقد أن لعبة التخيل والاستدعاء انتهت هنا ، يحمر وجهي:

من أين جئتِ بهذه الفكرة؟ أنا؟ ولماذا سأفعل؟.

هل تزعمين أن أحداً يسحب كرسياً إلى جانبي بصريره المزعج؟ دون أن أنتبه، أم أنني لم أسمع شهقاتكِ يا آنسة.. لكن ما الذي يفاجئك بكل الأحوال؟

عفواً، ليس من المفترض أن تسمعي، أو تلاحظي وجودي بالأصل، أنا هنا طيف يخترق الجدران والأفكار فقط، إلا إذا كنتِ قد تآخيت مع عفريت أزرق سابقاً، ثم .. ثم..

يا سيدتي الصغيرة، أنت تقطنين في المهاجرين، وأنا أقطن في أشرفية صحنايا، أي كرسي هذا سأجرّه كل هذه المسافة؟.

لا تتغابي، تعلمين ما أتحدث عنه؟ اخرجي مؤخرة طيفك الرخيم هذه من منزلي حالاً.. كم أنت مزعجة.. من أنتِ؟ ولماذا تناديني بالسيدة الصغيرة؟

أنا مازلت في الترّاس، لم أدخل بيتكِ. بالمناسبة هذا الترّاس مبني بطريقة غير قانونية لقد أخذت حيزاً إضافياً من بيت الجيران، يعني أنا، رسمياً على الأقل، لست في أملاككِ يا سيدة!

لست أنا من فعلها، أووف أيتها الحمقاء، ثم ماذا عنكِ، تزورين بيتي، ثم تقررين سرد القصص والروايات عني؟ هذا عار عليكِ، احترمي خصوصية حياتي، أنا امرأة تعيش وحيدة كافيةً خيري من شري الذي سيصيبكِ إن لم تغادر مخيلتكِ تفاصيل يومي السيئ الآن، الآن..

صرخت بشكل فاجر لا يليق بجسدها الناعم، ولا أنوثتها الرقيقة. خفت أن ترمي بطيفي من (الترّاس)، فكرت أن أخفف من فضولي وأسئلتي الكثيرة،

نزعـت الحذاء مـن قدمي، فالبيت هـادئ للغاية، وأنا لا أنفك أشـحط به وراءها، يبـدو أن التدابـير كانـت ناجحة، هـا هي الآن تدخـل غرفة النوم، يا لهـا من غرفة رائعـة! من أين لكِ بكل هذه النقـود؟ سرعان ما ضربتُ فمي الثرثار براحة كفي، وأخرستُ نفسي بنفسي.. ممتاز، لم تسمعني.

السيدة الصغيرة تفتح أبواب خزانة الملابس، تُخرج منها ثوباً يليق بالمؤتمرات أو الاجتماعات على حد سـواء: تنورة إلى حد الركبة، بلوزة رقيقة، وجاكيتاً قصيراً ضيقاً، تضع قدمها في جزمة سـوداء جلدية، تلم الأشـياء من على الطاولة، تعيدها إلى أمعـاء الحقيبـة الفاخـرة، تسـتل علاّقـة المفاتيح مـن قلب علبة خـزف صيني، وتصفـق الباب وراءها.. حسـناً؛ يبدو أنها صدقت هـذه المناورة الأخيرة. وها هو طيفي يمشي معها دون أن تشعر به!

اقتربت من سيارتها الصغيرة، لكن غيرت رأيها. ربما ترغب بالتوفير أو أن مشـوارها قريب مـن هنا.. أكتب على الدفـتر، لكن لا تبدو مـن النمط الذي يوفر راتبه الشـهري، لكني لاحظت بكل الأحوال أن النسـاء الثلاثينيات والوحيدات، حـصراً بلا زوج أو عشـيق، يحافظـن على وقار محفظـة النقود غالبـاً.. تمشي بهدوء عابـرةً الشـارع من المعبر المخصص للمشـاة عند إشـارة المرور، بينما أقفـز أنا بين السيارات كالعادة، هذا الأمر لا يتغير حتى لو كنت طيفاً أو خيالاً سارحاً..

تفكر السـيدة الصغيرة بطبيب بيطري يعرف كيـف يعالج صوت عصفور مراهـق. تسـتل هاتفهـا المحمول كـي تتصل ببعـض الصديقات، سـوى أنها تقرر اكتشافه وحدها، وتستغل الفرصة للتنزه في المدينة مشياً على الأقدام هذه المرة.

الساعة الثانية عشر والنصف، في (طلعة) ساحة الأمويين باتجاه شارع المالكي أمام مكتبة الأسد تقريباً هبت نسمة هواء قوية أثارت حزمة من أوراق الشجر الصفراء بوجه السيدة. كنا اثنين بلا ذقون مهوشة، أو صدر نافر، نجتاز الشوارع كلها بخفة عاشقين اعتدنا القراءة هنا. تنظر إلى حذائها الجميل، من الجيد أن حذائي إيطالي ويتحدى المرتفعات.

حقاً! بالنسبة لي أكره ارتياد المكتبات العامة، حيث لا أفعل شيئاً سوى انتظار الكتب التي أطلبها، أو تناول سندويشات الجبنة مع الشاي الساخن.

«لغة ترتدي ثوب الخطيئة، توقظ في النفس رغبة الهلاك، ولا تنام إلا معها..». ماذا؟ جمدت مكاني جراء الدهشة: يا للعبارة الساحرة، من كتب هذا؟

...

أجهد كي أحفظ الكلمات التي تفوهت بها السيدة، تربكني الحالة الشعرية التي دخلتها دون إنذار. أنظر إلى وجهها الناعم، أفكر أنه متناقض مع الكلمات التي تعج في رأسها.

كانت مكتئبة، تهذي بشعر محموم. أعتقد أنه شعر.

كنا اثنين، لن أسامح موتك، كيف تجرّأ؟ لكنه فعل. أقسمت إنني لن أذرف دموعاً على جثتك. نباتات الماء كبرت فوق القميص المسجّى على سريرنا.

الساعة الثانية تماماً ـ شارع بغداد ـ دخلة الأزبكية - شارع الخضار والفواكه والحلويات الشعبية، تفرح للرائحة الطازجة. تهوى منك الألوان وهي تنطلق من كفيك على هيئة بساتين اليفاعة! يا من يرنّ صوتك في أدوات المطبخ، كيف سيورد وجهٌ من بعدك؟

بقايا الروح تشتاق إليك. انتزع وردة العبث هذه وخذني إليك، إلى قبرك أسير.. وحيدة.

ماذا تقصد السيدة الصغيرة؟! هل تخرجت من كلية الآداب؟ أكتب على الدفتر في صفحة منفردة، حين زرتها منذ يومين أخبرتني صديقتنا المشتركة أنها خريجة كلية الاقتصاد. يا إلهي هذا سيعبث بخطوط القصة، ماذا سأفعل؟

حسبت أنها مختصة بالمحاسبة. لا، لا، العلاقات العامة، صحيح! رئيسة قسم العلاقات العامة في شركة عالمية في البلد، لكنها تزوجت شاعراً مغموراً ربما.. حسناً.. لماذا تجعلينني مسجونةً بتكهّنات غريبة عنكِ.

ثم ما هذه الأماكن التي تقصدينها؟ أزعم أنني حفظت تفاصيل الوجوه في هذه الشوارع عن ظهر قلب. أرجوكِ توقّفي عن النواح يا سيدتي الصغيرة. ساعديني كي أكتب حكايتكِ للآخرين؟

تستمر الحياة رغماً عن الجثث المحروقة بالعشق، تلك التي سكبتا فيها الحنين ولم تزدد سوى اشتعال. ارحمي جحيم الرجل يا سيدة من هذه النيران. قلت لها حتى تستعيد شيئاً من المنطق. فشعرت أني أردد جزءاً من مسرحية ليوريبدوس.. فقد أتعبت مخيلتي بينما كنت أستمع إليها تكاد تجعلني أذوب حزناً على الرجل الذي لا أعرف عنه شيئاً حتى الآن.

الساعة الثالثة والنصف - ساحة باب توما، السيدة الصغيرة مرهقة من هذيان الساعات الأخيرة، متخبطة في حزن ستنساه بالطبع لأنها سيدة قوية. من الواضح أنكِ تتدبرين أمورك جيداً، هل أنت قوية يا سيدتي؟ لو لم ينشّز العصفور هذا الصباح. تتعثر بخطواتها المترنحة، تهطل عليها روائح الماضي من أكوام الخيار البلدي والبقدونس المفروم، السمك الطازج، وصناديق البرتقال. السيدة تبدو كما لو أنها فقدت شيئاً من وزنها، فالتنورة تكاد تقع من أعلى الخصر، هذه النحافة أضافت إلى عمرها عشر سنوات إضافية. ثم إن الأمر سيبدو غريباً جداً في الكتابة، هل يستطيع كائن ما أن ينحل بهذا الشكل المفاجئ في ظرف ساعات فقط؟

«فايق علي/ نحن اللي كنا بهاك العلية / نبقى نقعد ع القناطر وقت الشتوية..»

آه؛ أتعبني الحزن...

وأتعبتني تفاصيل الوحدة. فهي لم تكن قد انتبهت بعد إلى الدموع التي ذرفتها طوال الطريق، صرت أترنح مثلها في المشي: طيف سكران، وسيدة حزينة، يجوبان شوارع الذاكرة، كيف أكون حيادية مع ألمكِ.. أنا التي تبكي رجلاً تحبينه أنتِ، تزوجكِ أنتِ! تقول السيدة:

هناك «شعراء يُخرجون القصيدة من تحت الطاولة في المقاهي» وأنا تخرج قصيدتي من عباءة سلطانه الكحلية. وتكمل: ها أنا أراقب إشارات المرور التي «اكتظ بها الهواء»، و«المارة لا يعرفونه».. من المؤسف أنهم لن يعرفوك أيضاً!

ألم أقل لكِ؟

ماذا تقصدين؟

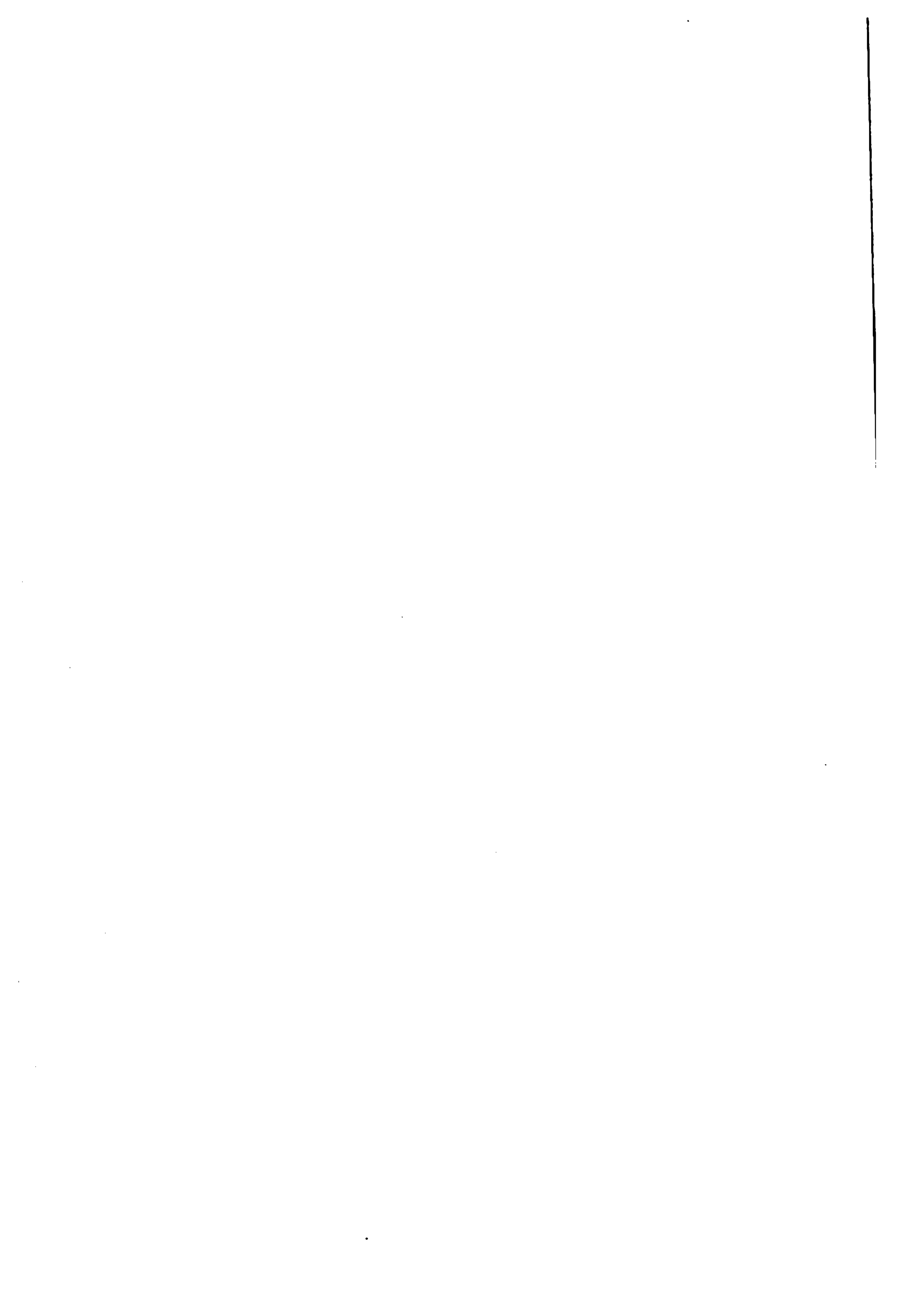
تصمت السيدة، تضع ذراعها الصغيرة على كتفي، تقف فجأة في شارع الباكستان. الساعة الخامسة والنصف، كنتِ تعلمين بوجودي طوال الوقت إذن!

كأنها استفاقت من الحمى، تتحدث بكلام واضح وجمل مترابطة للمرة الأولى منذ خروجي معها هذا الصباح.

أبحث عن طبيب يعالج صوت عصفوري المراهق، هل تعرفين أحدهم؟

تفترض الرائحة . .

يفترض الرسائل



أيـن أنـتِ؟ لم أركِ منـذ زمـن ولا بـأي غرفة من غـرف الدردشـة، قرأت رسـالتكِ البارحـة، لكـن لم يتسـن لي الـرد عليهـا، كنـت مشـغولاً بالبحـث عـن سينوغراف جديد، لم أستطيع أن أكبح امتعاضي هذا من الشـاب الذي أخبرتك عنـه، البليـد لم يكف عن اختلاق الحجج السيئة الصنع تماماً كوجهه، ربما تقولين الآن إن العـرض يجب أن يكون جاهزاً في غضون شـهرين، هـذه هي المدة المتبقية. لا تنس وقت الإنجاز يا سيد، لكن لا أريد أن أخرج من صالة المسرح تحت قصف الأحذيـة أيضـاً، تذكري هـذا، تعلمـين أن أولئك النقـاد، أصحابكِ كـما تزعمين -حسناً، أنا أمزح- لن يرحمني أصدقاؤكِ بمقالاتهم اللاذعة.

قرأت رسالتكِ وأعجبتني هذه الجملة. دعينا نجرب مرةً أخرى: ضد الفيزياء، نشكّل رسماً أولياً لشهيق بدائي..

هناك من يتحدث عن الفيزياء الأولية والنفس البدائي؟! سأخبركِ شيئاً عن الكيمياء. إني أختنق، أختنق... يخنقونكِ يا ديمة أنتِ أيضاً.. سأخبرك أكثر عن طيور الظلام - ليس فيلم عادل أمام الشهير - تلك التي كبرت وتخطت كل المراحل البدائية. أين أنت؟

...

الرسالة الثانية

موجودة في كل مكان، انشغلتُ أنا أيضاً، هل تذكر حين قلت لك إنني قررت عرض اللوحات عند نوال؟ حسناً، لقد غيرت رأيي. ذهبت البارحة مع رنا إلى أحد الأماكن البديلة التي اقترحها نادر - الشاعر الذي حدثتك عنه، هل تذكرته؟ - معمل خياطة قديم! اخرس، لا تضحك، فقط لو تتأمل هذا المكان ستؤيدني على الفور.

ملاحظة: وائل، لقد وجدت المكنات العتيقة ذات النقطة الحمراء، تلك التي اشتراها السعوديون بأعداد كبيرة طمعاً بالحصول على بقية الوصفة الخاصة بالتعويذة كي يصبحوا أغنياء!

قضيت نهاراً منعشاً بصحبة نادر في المعمل... شربنا البيرة في الحانة القريبة منه، حكى لي حكاية طريفة عن والده، فقد كان يخالجه الشك بأمه حين تقصد الخياطة، لأن إحدى عشيقاته كانت تتعذّر بالسبب ذاته حتى تلتقي به سراً... يا إلهي كدت أموت من الضحك.

وائـل، يبدو أنك اقتلعت إحدى هذه الأخشـاب من على المسرح وضربـت رأسـك بها عدة مرات دون أن تدري! ربما كنت ثملاً، هل جننت يا ابني؟ طردت الولد، أقصد الرجل الذي سيصمم لك الديكور، ماذا ستفعل الآن؟ تمهل قليلاً، قد أجد لك أحداً لا يعمل في هذه الأيام.. وتجرؤ أن تتهمني بالنق...؟ تفضل بالرد السريع رجاءً.

....

حلمتُ بك البارحة، هل كنتِ تشعرين؟ لا أذكر تفاصيل الحلم، لكن كنا نرقـص سـويةً، أو شـيئاً من هذا القبيـل، ترتدين فسـتاناً أحمر، كانـت ليلة مجنونة، وكنـتِ صاخبة، مرحة، أميرة هادئة، حزينة، ناعمة، سـاخطة، حاقدة، ومثيرة حقاً بكل وقاحتكِ التي أعشقها! كنتِ تشعرين بذلك، أعلم!

...

الرسالة الثالثة:

كنـا سـويةً ليلـة البارحـة، تأكد من هـذا. ولدي مـا أضيفه عـلى تفاصيل الحلم اللذيذ، كنا نرقص- تأكد من هذه أيضاً- في الشوارع المبللة. وائل، لم أنس يوماً الشخص الذي شـاركني المطر الأول حتى لو كانت مشـاركته افتراضية، ما رأيك؟! لا أدري لماذا أتخيلك دائماً جالساً قرب نافذة كبيرة تحمل كأس نسكافيه، وتنظر إلى الشارع.

...

ما أشجعكِ، وما أكثر تفكيري. البارحة قرأت لكِ قصيدة «الخديعة» الفتاة التـي سرقـت مفاتيح بيتـك ليلاً! «الخديعة» ما أقسـى هـذه الكلمة.. حسـناً؛ هذا الوصـف جميـل، تعلمين، أخشـى أن نصـاب بالخيبة إذا مـا قررنا يومـاً أن نلتقي، أقصـد، عـلى أرض الواقـع. هـا أنا، أتخيل شـكل اللقـاء الذي سـيجمعنا، كيف؟

سأتلعثم أمام قوة حضورك، وأتفوه بالسخافات عن الطقس وطعم القهوة! يا الهي، الأمر مربك حقاً، أتخيلكِ، أتخيل عوالم الشخوص التي تحكين عنها باستمرار، آه كم أنتِ متعبة.

...

الرسالة الرابعة:

يا إلهي (وأعتقد أنه هنا افتراضي) حتى رجل من أقاصي الشبكة العنكبوتية يجزم أني متعبة! ثم أننا قررنا مسبقاً أن لا نلتقي أبداً، أم نسيت هذا الوعد؟ لماذا لا تكف عن اختراع هيئة أو أسلوب ما لأيامي وطريقة عيشي؟! انتبه، هنا مشهد عليك التقاطه حالاً، الجاز يُسقط سحره الخاص على جزء من كأس النبيذ في يدي.. إضاءة خفيفة على كتفك الأيمن، أفكر بينما أفكر بكأس أخر، لماذا لا تستطيع فتاة جميلة ومتعبة مثلي الاستمتاع بسهرة لطيفة دون أن يتكهن أحد ما شكل حياتها؟ بقية المشهد لك...

..

في السهرة، أمسك كفكِ الصغيرة، أقترب من وجهكِ، أهمس: لا تقدرين على فرض مشيئتكِ على الآخرين، هذا أمر طبيعي، أن أتساءل عن الطريقة التي تقبلين فيها على الحياة؟ واضح أنك مقبلة عليها بشغف!

...

الرسالة الخامسة:

لست مقبلةً على الحياة بشغف!

تبدين غاضبة وكأن الإقبال على الحياة أمر سيئ!

...

الرسالة السادسة:

لا، اعتدت على سـوء نية الآخرين، حين يتعلق الأمر بنهم امرأة، أي امرأة للحياة.. لدي عملي وأنا منهمكة فيه حالياً..

هل هذا كرت أحمر؟

الرسالة السابعة:

لا.. من المؤسف أنك أضعت البوصلة، ولم تعد تلتقط شيئاً.

أنا غارق في العمل أيضاً، لكن أنتظر رسائلكِ على أحر من الجمر...

...

الرسالة الثامنة:

أنت كاذب، وأنا كاذبة، أمثالنا لا يغرقون في العمل...

ربما، لكن لا تصبحي فجأةً أنثى عادية، هذا ليس دوركِ..

...

الرسالة التاسعة :

لست مُخرِجاً علي انتبه، أنت مخرج على أولئك؛ طلاب المعهد العالي للفنون المسرحية! في المسرح..

أنـا إلهكِ.. كنتِ هنا وهنـاك، مرةً عاملة الإضاءة، ثم في السـينوغرافيا، أو فتاة تقدم الشـاي، أو بطلة متفردة على الخشـبة، تنتظرين إطلاق الأمر ببدء المشهد، في حـين أجلس في مكان معتم مرتبك ومشـوش كلياً.. أقـرر أن أترك هذا الفضاء لكِ، تؤدين مسرحيةً ما من وحي أحاسيسـك.. أُطلق ملايين الذرات الذهبية على جسد البطلة الوحيدة؛ بطلتي، تمزقين الفراغ، تصرخين بوحشية قصائدكِ المفضلة،

تعيدين ترتيب الزوايا، تنثرين مجونكِ الخاص في أرجاء المكان الفسيح، ترقصين مع الهواء حولكِ بحيوية ونضارة الممثلة الجميلة ذات الخمس والعشرين دراقة يافعة.. في حين أفكر أنا في تحطيم أسطورة المخرج القادر!

...

الرسالة الحادية عشر:

تعلم، أفترض أن لرائحتك شيئاً من الكعكة الطازجة التي تخرج للتو من الفرن، كعكة مع قشر الليمون، لو تسنى لي رسم رائحتك يوماً، لصنعت أبهى كعكة من تمازجات الأحمر مع البني الفاتح والأبيض الخفيف. في الليلة الماضية كنت معك، مررت ذقني على شعرك، واستنشقت سهول الضيعة دفعة واحدة فيك؛ الضيعة التي جئت منها، هل مازلت ترغب بزيارتها؟ مررت ذقني نزولاً إلى أنفك، شاركتك النفس البدائي للمرة الأولى، ثم فكرت: أرسم القبلة دون أن أفقد توازن الألوان أو عقلي للحظات.

تعلمين، أفكر في اللقاء...

تقصد لقاءً غير هذا؟ على أرض الواقع يعني؟ لماذا؟

أحياناً تفاجئني أسئلتك. لماذا؟! لماذا؟ لا أعلم.. ربما هي رغبة الرجل في القيام بمغامرة ما بغياب حبيبته.. انسِ الأمر، دعينا هنا نلتقي ونثرثر ونرقص ونشرب النبيذ افتراضياً؟

...

كنت أمزح، أنا جاد، لا أملك حبيبة.

....

الرسالة الثانية عشر:

لا تصرخ في وجهي مرةً أخرى..

أعتذر، أعتقد أني بدأت أمل من هوامات المسرحية الجديدة.. لا أريد أن يتكرر المشهد، يصفق الجمهور أو يضحك، ثم يصفق... إنه جمهور صفيق بكل الأحوال، أحزن بشدة حين يفعل، أريد إذلاله، أريد سفك الدماء، أريد إهانته أكثر، أريد أن أنتشل رجلاً من الحضور وأجعله يجلس على كرسي مملوء بالخراء والقذارة.. ثم يضحك، ينظر إلى مرآته ويضحك، يأكل، يخرج الفضلات، وعلى الكرسي ذاته يغفو، يستيقظ ثم ينظر ببلاهة إلى مرآته ويضحك، أريد الجمهور باكياً ومذلولاً حد الموت.

...

الرسالة ما قبل الأخيرة:

أخبرني أحد الأصدقاء أن بطلاً مسرحياً مات قتلاً خلال تأديته لأحد المشاهد، لم أعد أذكر كيف؟ القصة قديمة، لكنه قتل على يد أحد المغرضين الذي استبدل سكين الديكور بواحد آخر حقيقي، فما كان عليه سوى جز عنقه والسقوط على الخشبة مضرجاً بدمائه، ثمة من يقول إنه انتحر.. في لوحاتي لا أهين شخوصي مثلك، أو أعمد إلى سفك دمائها، أنا أفعل العكس، أقوم بتحرير رموزي من آدميتها عبر الألوان، أسبغ عليهم رحمة العالم المتخيل، يستطيع أبطالي التحليق، في حين هم مقيدون بالسينوغرافيا التي اخترعتها، تمسك البطل من لسانه فيتحول إلى عبد للغتك أنت، وأفكارك الغريبة هذه، في حين أن أبطالي لا يتوقفون عن الحكي، يثرثرون الضوء، يتلقون درساً في الإصغاء للآخرين. هل تعلم، أحياناً أتساءل عن الممثل الذي قُتل في المسرحية إياها، ماذا لو لم يُقتل؟ ربما سيخرج بعد العرض يوزع

الابتسـامات للمعجبين... إذاً، على أحدهم قتله بكل الأحوال؟ كالممثل الذي قام بأعتى الأدوار المعقدة وجعل الجمهور يمرض لثلاثة أيام، بينما كان يقوم بشراء كيلو بطاطا بعد الانتهاء من المسرحية بساعة واحدة أو أكثر بقليل..

...

الرسالة ما قبل الأخيرة أيضاً:

أبحث عن مغلف. أين أنت؟

كذلك أبحث عن جملة أغضبتك في رسالتي الأخيرة، هل تكون البطل الذي ابتاع كيلو بطاطا؟...

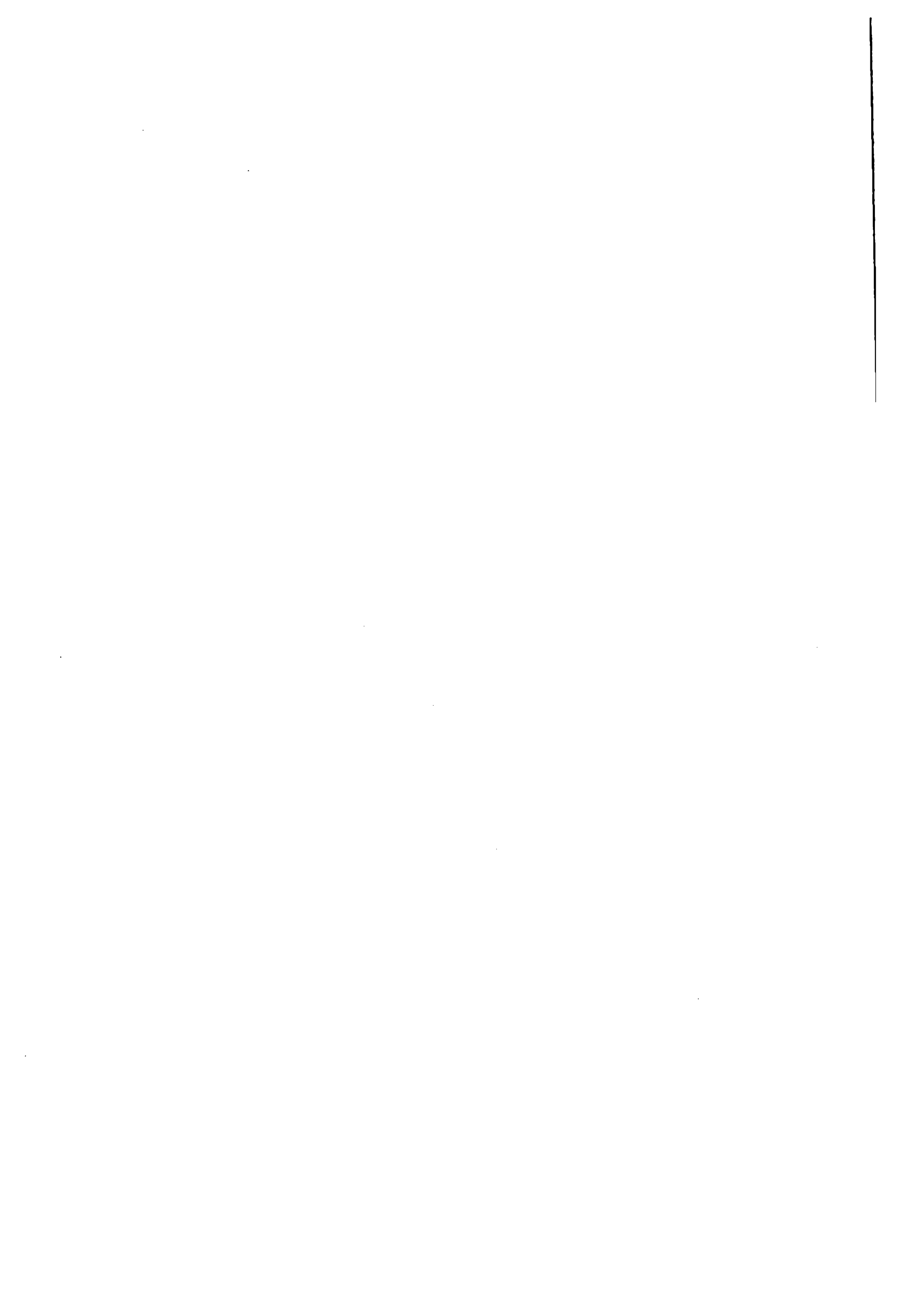
...

الرسالة الأخيرة:

أين أنت؟ اشتقت إليك.. حسناً، الممثل ذهب يشتري كيلو حشيش، حتى يركز في أدواره القادمة، هل ما زلت غاضباً مني؟

أمي ..

إليكِ في حال كنتِ تملكين حساباً هنا !



لا أعلم يا أمي إن كنت تملكين حساباً على الفيس بوك؟ والإنترنت بالنسبة إليك علم ومعرفة لأولادك الذين لا يشبعون من الجلوس ساعات طويلة، تاركين إيـاكِ ضجـرة من البرامج السياسية. ولو يعـرف العالم أية محللـة دقيقة للأحداث أنتِ، لكنت في الساحة العربية والدولية الآن! وتصلك رسالتي هذه، ومن يدري، ربما كنت تملكين حسـاباً تحت اسـم حركي، تفعلينها يا أماه.. لن أسـتغرب ذلك، أنت التي أمسكت بحرامي من غرته، كان على وشك سرقة سيارة زوجكِ الحبيب في عز النهار، بقوة حدسِـك فقط! أنا ابنتكِ التي تكشـفين أفعالها دوماً، حتى وهي في الخامسة والعشرين كذلك.

كان لابـد أن توضبي حقيبتك وتسـافرين لمدة شـهرين، حتى أعترف أنني اشتقت إليك كثيراً، وأكاد أبكي الآن وأصرخ ملء الصوت: الدنيا أم. لولا أنني لم اقتنـع بهـذه المبالغة! سـوى أنـكِ إذا شـاهدت دموع الحنـين واللوعة عـلى غيابكِ ستجعلينني أجلي الصحون المتراكمـة في المجلى، لأن الفتاة، كـما تؤمنين، لن ترى بديـلاً عن أمها قـط. وهذه فرصة جيدة كي أقدّر وقفتكِ الطويلة في المطبخ تنظّفين الصحـون التـي خبأتها تحـت السرير أنا (الوخـمـة)، النزقة التي عليهـا أن تبدع لأن المنافسة ضارية!

أتسـاءل في غيابك، وأنا أوضب سريري بالإكراه، لأنه لا أم لـدي تتسـامح مـع الفـوضى، وتجدها ذريعة لقتـل الوقت الطويـل في حال خـروج كل أولادها، ما الذي صنع منك امرأة جبارة وصامتة تعمل بهدوء على حل المشاكل دون صراخ أو تهديدات مبطنة، كما أفعل لأني فقط (مزعبرة) دون جدوى!

أذكـر كيف تحدثينكِ يا أماه بأنك لا تقدرين على ثني رأي رجلكِ عن قراره المتعسف بشأني. لذا، سأهرب من المنزل، ولن تعرفوا لي درباً، خاصة أنني شيخ من (صاع) في البلاد الواسعة.. تلك الابتسامة الهازئة مازالت تحفر جبين أيامي البعيدة عنكِ، في المرة التي كنت تخبرين أختك المدهوشـة كذلك أنني أملك أسلوباً رصيناً في الكتابـة، وتُخرجـين لهـا المجـلات والأوراق التي كُتـب عليها اسـمي من تحت الوسـادة كـما إسـوارة ذهبية جديـدة في معصمكِ.. وهـذه رحمتكِ تهطـل علي من جديد، وتُيسّر أموري..

لكن نظام السـهرات معطل في سفركِ، وإن كنت لا أجرؤ سـوى على النوم في غرفتي مهما كان السبب، وإن كنتِ تصطنعين أنكِ صدقتِ ما أخرجـت من سلة أكاذيبـي، وفيها حجج من نـوع أن رجلاً ذا نفوذ أرغب بالعمـل في شركته يوماً..

عريساً (لقطة غير شكل)، وهنا، ولأنكِ لست من هواة الأفلام الغربية، أُخرج لكِ من تليفوني المحمول صورة (ألباتشينو) وقد أخبر صديقاً لي أنه مغرم بي ويتمنى التعرف علي أكثر.. تشكّين في هذا نظراً لشرشحتي الواضحة للعيان وغير المتناسبة لهيبته الرجولية الناضجة.. ابنتكِ التي تأكل (كلاش) عاطفي، وتنام شهراً في غرفة نتنت، وأخيراً، عليكِ غسل الشراشف الآن! يالها من وسيلة مبتكرة كي أستمر في حياتي، اضطر للابتعاد عن زوبعة التنظيف هذه، في حين أفكر بشاب أكثر وسامة من الماضي..

هذا الرجل، زوجكِ الغالي، ليس من السهولة إقناعه. بربكِ، ماذا كنتِ تقولين له، ويسمح لي بالخروج ليلاً؟!

كفيلي الرائع كنتِ وما تزالين.. الوحيدة التي أقدر على إكمال حوار معها دون وسمي بالجنون، لا أدري كيف تلبين رغباتي كلها، وأنا لم أقل لكِ شيئاً. ليست حكمة الأمهات، أعتقد شيئاً ما يشبهني فيكِ وسأفهم يوماً سخطكِ الهائل حين لا أرد على مكالماتكِ، وكي أوقف سيل الشتائم - العسل من فمكِ، والبصاق الطائر في كل مكان أيضاً.. اتفقت أنا وأنتِ على خطة صار العالم كله يحفظها عن ظهر قلب: ترنين رنة، أفصل في وجهكِ، وهذا وحده ما يؤكد لكِ أن (شوفير) تاكسي لم يختطفني بعد..!! وإن دعوتِ أن آتيكِ (مدعوسة) لأن الساعة شارفت على الثانية عشر منتصف الليل..

هل تعودين إذا ما ارتديت صندلكِ الأسود في العمل؟! وسرحت شعري تسريحة (الألشات) ووضعت الألوان التي تحبين فوق جفني، ثم قلّلت من لون الأحمر القاني على شفتي كما ترغبين؟! عودي أرجوكِ، وسأضع الثياب التي تحبينها على جسدي..

أمي البيضاء ذات التقاسيم الناعمة والبشرة الغضة في الخمسين، المرأة التي لم تعرف مزيلاً للشعر في حياتها، أو حتى ملقط حواجب..!! في عشيرة السمر هذه أفتقد (تعييركِ) لي دائماً أنني سمراء صفراء، وأجرؤ على الخروج بوجه بلا ماكياج ويشعر منكوش، بسبب أفكار أبي التقدمية..

حين كنا نتفرج على الصور العتيقة وأنت تفصصين البزر المصري المفضل لديكِ، التقطت لكِ؛ صورة بتنورة قصيرة جداً.. لماذا تراقبين ثيابي كشرطي الآداب إذن؟ قلتِ هذا لأن ساقي بيضاوتان، ويليق بي الميني جوب، ثم إن عيون الشباب كانت أنظف على دورنا... يخبرني أقاربكِ في الريف الديري، الطاعنين في السن منهم، إنني أشبهكِ في شبابك، أصحيح يا أمي أنكِ ضربت امرأة كبيرة ليلة زفافكِ لأنها أطالت لسانها على أمكِ؟.. غير أنكِ كنت تملكين معجبين أكثر، و لا تركضين وراء الشباب، بل يقتحمون منزل أبيكِ بكل فخر، وأنكِ لا تضحكين كالمهبولة أمام كل الناس...

الفهرس



كندة السوادي

حسمت الموضوع في المنام فطردت الاثنين من ملكوت الحب الذي أسرح فيه وحدي، هكذا أخرجت جبيني من تحت الأغطية لأخرج بالحل الذي اعتقدته ذهبياً في فك الاشتباك مع هلوساتي، سألتصق بظهره. أي سألتصق به. جسدياً أقصد. مثل قرد صغير مذعور، ماذا سيفعل؟ نعم لن يقدر على نزعي منه مهما حصل. إذا ما التصقت به بهذه الطريقة المحرجة. سيمشي بين الناس مطأطئاً ومرتبكاً بالجسد الأنثوي المتعربش به بكل أمومة الأدغال..

غداً سأذهب إليه والتصق بصدره، كضماد منتهي الصلاحية. ثم وضعت نصب عيني الحركات التي سيقوم بها ووضعت أيضاً الخطة (أ) و(ب) وصولاً إلى آخر الأبجدية، حتى لو سيهشم وجهي في ذروة استفزازي الماجن له، لن أبتعد عنه خطوة واحدة: حبيبي بلا حيونة! لا تهجرني أرجوك. أرجوك.. هذا ما سأقوله له. هذا هو الحل!!


ISBN 9933464345

سورية - دمشق ص. ب : 2322
هاتف: 963 11 56399561 +
فاكس: 963 11 56399560 +
جوال: 963 944 624 693 +